30

أول زيارة إلى أفريقية

كان الهدف الأساسي من زيارتي الأولى إلى أفريقية هو إلقاء خطاب في لوساكا، زامبيا، يضع الولايات المتحدة مباشرة وراء حكم الأغلبية في جنوب أفريقية. إذ كنت سأقدم ليس إعلان مبادئ وحسب، بل برنامجاً للإنجاز. وقد كان التنسيق بين دول خط ـ الجبهة، ولا سيما تنزانيا وزامبيا، شرطاً لازماً من أجل الاستقلال النهائي الذي سيحمي حقوق الأقليات الأوروبية، كما كان لا بد من دعم منظمة الوحدة الأفريقية لعزل العملية الجارية عن أية ضغوط أو ابتزاز من قبل دول غير أفريقية. لهذا السبب، أدخلت عدداً مختلفاً من البلدان الناطقة بالإنكليزية والفرنسية في خط سيري ـ وبشكل محدد تنزانيا، وكينيا، وزامبيا، وزائير، وليبريا، والسنغال.

أنطوني كروسلاند ودور بريطانيا:

بدأت الرحلة في 24 نيسان 1976 في بريطانيا التي كنا نعتمد على خبرتها والتي كانت مأسهمتها أساسية من أجل نقل الحكم بهدوء إلى الأغلبية في روديسيا. ونظراً لأنه ما من دولة كانت قد اعترفت بالسلطة الروديسية برئاسة إيان سميث، فقد ظلت بريطانيا هي الحاكم الشرعي وكان عليها أن تشرف، ولو إشرافاً مؤقتاً، على انتقال الحكم إلى الأغلبية.

ولأن هارولد ويلسون كان قد استقال بشكل مفاجئ باعتباره رئيساً للوزراء دون تقديم أي تفسير حينذاك أو فيما بعد، فإن وزيراً جديداً للخارجية كان بانتظارنا. فقد حل جيمس كالاهان محل ويلسون في دوانينغ ستريت رقم 10، وأصبح أنطوني كروسلاند هو وزير الخارجية. وقد كنا نعرف كالاهان ونثق به، أما كروسلاند فكان جديداً علينا تماماً.

كان طوني كروسلاند أحد مفكري حزب العمال الأساسيين. جلّ اهتمامه ينصبّ على القضايا الداخلية أو الاقتصادية، وكان قد تنافس على زعامة الحزب مع كالاهان ودونيس هيلي الذي بقي مستشار الخزانة. وكان موقف كروسلاند تجاه كالاهان لا يختلف عن موقف أدلاي ستيفنسون تجاه جون كنيدي ـ قلبياً، إذ لم يكن يستطيع أن يفهم لماذا يفضل الحزب رجل السياسة على رجل الفكر. كما لم يكن سعيداً لرفض كالاهان أن يسند إليه المنصب الوحيد غير منصب رئيس الوزراء الذي كان يتوق إليه حقاً ـ أي منصب

مستشـار الخزانـة. وإننـي أشك فـي أن كالاهان، في مواجهة اثنيـن من المفكريـن الموهوبين اللامعين اللذيـن كانـا ميالين للإصرار على وجهات نظرهما، وضع كروسلاند فـي نطاق غير مألوف بالنسبة إليه، أي وزارة الخارجيـة، وأبقـي هيلي، الذي كان يهوى فعلاً السياسة الخارجية، في وزارة الخزانة، وذلك كي يقطع الطريق على أية محاولة من قبلهما لتجاوز الحدود الخارجية للمعتقدات التقليدية.

ولقـد تبيـن أن تلـك طريقة فعالة للتعامل مـع منافسيه المحتمليـن.. إذ من غيـر أن يتحدى الحكمة التقليدية، التي ربما كان يميل لأن تكون أسلوبه في السياسة الخارجية، تابع هيلي أداءه المتماسك الشديد فـي وزارة الخزانة، فيما اكتشف كروسلانـد، الذي كان متجهماً ونافراً بشكل من الأشكال من عمله وزيراً للخارجيـة أول تعيينـه، لأنه كان يمتلك قدرات كبيرة في عمله. ثـم، بعد بضعة أسابيع، استطاع الاستمتاع بعمله وقد انغمس في ميدان غير مألوف لديه، وهو أن يخفف كثيراً من خيبة أمله الناجمة عن هزيمته في معركة الزعامة على الحزب.

مـع ذلك، وفي البداية، كانت فظاظة كروسلاند الواضحة ـ جنباً إلى جنب مع سلوكه المرتجل الفاتر – قـد أفادت في تحويله إلى «طفل الدبلوماسية المزعـج». إذ لم يبق الأمر سراً في أن نظام الدبلوماسية الدولية يزعجه. وبين أكثر الطقوس الدبلوماسية قدسية، هناك تقليد في أن أيَّ اجتماع دولي ـ لاسيما إن كان المشاركون فيه قلة ـ يجب أن يستغرق الوقت المخصص له. فإن لم يستغرقه فستعزو وسائل الإعلام ذلـك إلى الفشل، فيما يضطر من كانوا في الاجتماع لأن يقدموا الشروح والتفسيرات لإنهاء الاجتماع قبل أوانـه. لم يكن كروسلاند يملك صبراً حيال هذا الأمر وكان ينهي الاجتماع حالما يستنفد جدول الأعمال. وبفعلـه هذا، كان يستبق إنهاء الحوارات التي يتم تبادلها وقت الراحة والتي تعقب عادة النقاش الرسمي. هذه النقاشات غير الرسمية تفيد كطريقة لبناء الثقة من أجل اللحظات التي يمكن أن تتخذ بها القرارات تحت ضغط الأحداث.

استمر سلوك كروسلاند المتشامخ نوعاً ما إلى أن تلّقى ترحيباً حاداً باستحقاق من زملائه في مجلس شمـال الأطلسـي بعد أن قـدم تقريراً لامعاً عـن زيارته إلى بكين. ثـم إن تحطُّم الجليـد، والتنسيق حول أفريقيـة وفّـر المناسبة. فعملنا أنا وكروسلاند معاً، كما عمل أركاننا، حـول موضوع روديسيا، وكأنهم في الحقيقة، فريق واحد.

لقـد استفـدت إلى حـد كبير من مقـدرة كروسلانـد التحليلية الفريـدة التي مكنته مـن التوصل إلى إسهامـات فكرية عديـدة قدمها إلى مبادراتنا العامـة. كما تكشف عن أن لديه حسّ دعابة غريباً. فلكي نبعـد عـن أنفسنا الأبّهية التي غالباً ما تصاحب مهنة الدبلوماسيـة، ابتكر كروسلاند لعبة كل طرف فيها بحسـب النقـاط في أي وقـت يرتكب الطرف الآخر فيـه حماقة ما. ولما كان هو الـذي وضع قواعد اللعبة وهـو الـذي يحسب النقاط فيها على حد سواء، فقد كان محكوماً علي أن أنغلب على الدوام. لقد اكتشفت،

مثلاً، أن قيمة نقاطي كانت 800، عندما سألت، في عشاء البيت الأبيض الذي أقيم للملكة إليزابيث في 7 تموز 1976، الأمير فيليب شريكته على الشعاء (والتي لن أذكر اسمها) من أي ناحية من ألمانيا هو. لكن عندما ظهر كروسلاند في عشاء ملابسه ذات عقدة بيضاء، بملابس سهرة شبه رسمية وعقدة سوداء، كسبت فقط 200 نقطة.

واستعداداً لرحيلي من المشهد السياسي إثر الانتخابات الأمريكية الوشيكة، كان كروسلاند يصف 1976 بأنها سنته التعليمية في السياسة الخارجية. إذ ما إن غادرت المكتب حتى أعلن أن في نيته أن يظهر بوصفه القوة الرئيسية في صياغة سياسة الأطلسي الخارجية ـ جامعاً بذلك الدعابة الذكية في إطراء بروزي وهيمنتي المزعومة في الإلماح إلى أنني غير ضروري ويستغني عني. وللأسف، فقد سقط صريعاً إثر إصابته بسكتة دماغية، وذلك بعد بضعة أسابيع فقط من مغادرتي وزارة الخارجية. لقد كانت مأساة بالنسبة إلي: إذ خسرت صديقاً أقدره كل التقدير كما أن إنكلترا خسرت زعيماً سياسياً قديراً.

لكن هذا كله كان ما يزال سيأتي مستقبلاً. حين التقيت أنا وكروسلاند صباح 24 نيسان في محطة القوات الجوية الملكية في وادينغتون شمالي إنكلترا، قريباً من جمهور ناخبيه في غريمسبي. وكان قد اختار هذا الموقع تفادياً للانتقاد الذي كان قد تعرض له سلفه: أي أنني، كما زعموا، يمكن أن استدعي كالاهان إلى مطار هيثرو كي وألتقي به فترة وجيزة أثناء توقف الطائرة للتزود بالوقود. وهكذا، يرافقه المدير الدائم لمكتب الخارجية والسكرتير المساعد المسؤول عن شؤون أفريقية، باشر كروسلاند المهمة المؤلمة ولا شك ـ لمرحلة مؤقتة على الأقل ـ ألا وهي تسليم الولايات المتحدة الدور التقليدي لبريطانيا في قيادة أفريقية الجنوبية.

كانت النصيحة البريطانية هي أن أتجنب التشديد على جانب الحرب الباردة من جوانب مهمتي، لأن زعماء أفريقية لم يكن يعنيهم بصورة حصرية تقريباً إلا مشكلات أفريقية. حجة كروسلاند هي أن الحرب الباردة قد تكون ذات أهمية لخصومنا الأفريقيين، إن كان لها أية أهمية أصلاً، باعتبارها وبصورة أساسية فرصة لابتزازنا واللعب بنا مقابل السوفييت. أما مبادرة كالاهان بالنسبة إلى كروسلاند تلك التي جرت في 22 آذار حول حكم الأغلبية لروديسيا، فقد كان يرفضها إيان سميث لأن الاقتراح لم يأخذ بالحسبان، على نحو كاف، مصالح الأقلية البيضاء. ولقد فكرت أن المشكلة الكبرى هي، أن بريطانيا لم تعد تملك الموارد التي يمكنها أن توازن بين الفوائد والمضار الأساسية. وإذا كان لرحلتي أن تنجح في دفع سميث باتجاه حكم الأغلبية، فقد كان لا بد من إدخال بعض الضمانات للسكان الأوروبيين في حزمة الاتفاق النهائي. وقد أخبرت كروسلاند أننا كنا نأمل من بريطانيا أن تضع مسودة الوثائق الدستورية المناسبة وأن تشرف على أية جمعية تأسيسية نهائية.

جوموكنياتا: البركان الخامد:

لقد اخترنا كينيا محطةً أولى لنا في أفريقية لأنها بدت في تلك الأيام وكأنها أنموذج للكيفية التي يمكن أن يكون عليها حكم الأغلبية مع ضمان حقوق الأقليات البيضاء. (لكن منذئذ، راحت السياسات الداخلية لكينيا تتطور في اتجاه قمعي أكثر وأكثر، رغم أن الضحايا الرئيسيين كانوا الخصوم الأفارقة للرئيس الإجباري). وقد كنا نأمل من رئيس كينيا الأسطوري، جوموكنياتا، أن يدعم سياستنا ضمن منظمة الوحدة الأفريقية.

جرى الاجتماع مع كنياتا في مقره الريفي في ناكورو (إذ نادراً ما كان يغامر بالذهاب ـ إلى نيروبي). وكان علينا أن نطير إلى هناك بطائرة صغيرة ذات محركين ـ وسيلة النقل غير المفضلة لدي. وحين قام الطيار بغوصة مفاجئة كي يتجنب سرب طيور، ازدادت في نظري سوءاً.

كان كنياتا، حين استقبلنا في قصره القرنفلي المزخرف بالجص، ينحت في تمثال مهيب، بسيمائه الأبنوسية المقطوعة كالحجر ولحيته الرمادية، هو الذي كان قد قضى معظم حياته السابقة في الخارج. ففي الثلاثينيات، كان يدرس في إنكلترا، ثم درس سنتين في جامعة موسكو، ليحصل أخيراً على درجة الدكتوراه في الأنتربولوجيا من كلية لندن للاقتصاد. أصبح كنياتا، لدى عودته إلى كينيا سنة 1946، ناشطاً في سياسة التحرير كما نظم حرب عصابات الماوماو. ومن 1953 إلى 1961 سجنته بريطانيا إلى أن جُرّ من زنزانته في السجن، شأنه شأن الكثير من قادة حرب العصابات، إلى قيادة بلاده.

لقد كان من الصعب تصور كنياتا الذي التقينا به، ببزته مزدوجة ـ الصدر وقوامه ذي الرفعة الملكية، على أنه هو نفسه اللندني؛ تبخرت عندما نقر نقرة خفيفة بمكّشة الذباب المصنوعة من شعر ـ الزرافة التي كان يحملها وهتف بالشعار الوطني الكيني (هارامبي) و(تلفظ هاراااام ـ بيـ ـ ي) ـ وتعني «لنعمل كلنا معاً».

أحد الجوانب الخارقة للعادة للكفاح الأفريقي من أجل الاستقلال إنما هو الطبيعة المعكوسة للعلاقة التي غالباً ما تتطور بين المعاناة خلال الكفاح والاستعداد للمصالحة بعدئذ. لقد كان من الواضح أن كنياتا في حالة سلام مع نفسه، وكان قد صمم على العيش في انسجام مع الأهداف السابقة لكفاحه أثناء حرب العصابات التي غالباً ما كانت وحشية، مثلما سيتكشف نيلسون مانديلا، الشخص الأكثر أهمية، عما تكشف عنه بعد عشرين سنة. والحوار التالي يبين موقف كنياتا:

كيسنجر: لقد برهنت على أن لديك روح المصالحة والنبل الإنساني.

كنياتا: كنت أكره أن أكون عبداً. أردت أن أكون حراً ـ ولم أكن أكره بريطانيا.

كيسنجر: أنت معجب ببريطانيا الآن.

كنياتا: بعضهم قالوا إن كنياتا سيقطع رقابهم، لكن كل ما كنت أريده هو أن أكون حراً.

عندما انتقلنا إلى لب الموضوع، تبين أن كنياتا في تلك المرحلة من عمره، كان قد بلغ أوج طموحاته، وأن الصراعات في أفريقيا الجنوبية كانت تهمه فقط لدواع رمزية. وهكذا، حين قدمت له ملخصاً عن خطابي حول حكم الأغلبية الذي كنت أنوي إلقاءه في لوساكا، كان رده فاتراً، ثم ما من حوار أعقب ذلك. إضافة إلى ذلك، وكما ذكر في المذكرة التي رفعناها عن حديثنا: «كان من الجلي أن كنياتا لم يكن يرغب بالسماح لوزير الخارجية (مونويا) وإياكي في التحدث (عن قضايا أفريقية الجنوبية).

لقد تصرف كنياتا كما لو أن إسهامه في التضامن الأفريقي لم يكن يتطلب أكثر من الدعم المعنوي لكفاحات التحرير السائدة والتي كانت تجري في القارة. وباعتباره خاض معركته دون مساعدة خارجية، فقد كان يشعر، على ما يبدو، بأن قوة المثال الذي ضربه هو كانت كافية. وهكذا، كان كنياتا، من جهته، يركز على الحفاظ على ما كان قد صنع. ولتلك الغاية لم يكن يعتبر الصراعات في أفريقيا الجنوبية النائية ذات علاقة به على نحو خاص. فالخطر الأكبر الذي يهدد بلده إنما كان، بالنسبة إليه، يأتي من الجيران الذين يسلحهم السوفييت، كالصومال مثلاً.

على أن المساعدات الاقتصادية العسكرية الأمريكية كانت من اهتمامات كنياتا الرئيسية. «في الماضي كنت أنظر إلى أمريكا كشيء فظيع». قال كنياتا، لكن بعد أن تعرف إلى البلاد، صار يقدر «كثيراً جداً ما كنتم تفعلونه لشعبكم. ثمة الكثير من الكينيين في أمريكا، في مدارسكم وفي أماكن أخرى، وهم يعودون إلى الوطن بتقارير جيدة جداً عما شاهدوه. لكن لسوء الحظ أن بعضهم يرفضون العودة إلى الوطن». لم يكن هناك من شك في أن كنياتا سيدعم في المنابر الأفريقية سياستنا الخاصة بأفريقيا الجنوبية وذلك بسبب ضرورات كينيا الاستراتيجية كما فسرها لنا.

مع تحول الاجتماع إلى تفاصيل المساعدة الاقتصادية والعسكرية، غدا كنياتا، وعلى نحو ملحوظ، نافذ الصبر، لاسيما حين وصل إلى مسامعنا في قاعة الاجتماع صوت غير بعيد كثيراً لطبول تقرع. فعند تلك النقطة، وضع حداً للجلسة بدعوى أن «الكثير جداً من الكلام لا يفيد». ونظراً لأنه ما من كينيّ مستعد لأن يتكلم بعد أمر كهذا من رئيسه، فقد تلاشت المحادثة. ومن الواضح أن كنياتا كان يفكر أنه حان الوقت للوفاء بالوعد الذي كان قد قطعه في بداية الاجتماع. «بعض الناس سألوني إن كنت أسمح لهم بأن يأتوا ليرقصوا لكم» قال الرجل: «وعندما ننتهي هنا سآخذكم لكي تروا الناس أنفسهم ورقصاتهم».

ذهبنا مع كنياتا إلى ساحة شبه دائرية، جوانبها الثلاثة محاطة بمدرج مكشوف، بعدئذ قادنا في طريق يؤدي إلى كرسيين أشبه ـ بالعرش وُضعا تحت شرفة في النهاية المفتوحة هنا، ورغم بذلته الغربية، كان في كل ذرة منه ذلك الزعيم القبلي الذي يضرب الذباب بمكشته ويهتف «هارامبي». عشرات الراقصين والراقصات وعدة آلاف من المتفرجين كانوا قد اجتمعوا. ألقى كنياتا خطاباً مدوياً داعياً إياي بعد ذلك

لكـي أحـذو حذوه، فاحتججت «لن يفهمني الحضـور». فرد كنياتا «توجد بعض القبائـل هنا لا تفهمني أنا أيضـاً». لكنهـم يتوقعون من الزعيم أن يلقي خطاباً بصوت عـال. ولا أستطيع أن أتذكر عند هذه النقلة ما قلت. لكن من المؤكد أن ملاحظاتي لم تكن لتقدم إسهاماً دائماً للفكر السياسي.

بعـد ذلـك، راقبت نساء برؤوس حليقة يقدمن رقصة جواهـر معقدة، فيما جعـل محاربو الماساي، برماحهم اللماعة، شعوري بالأمان مهدداً وأعصابي متوترة. أخيراً شرع عشرات الأطفال المرتدين لثياب بلـون العلم الوطني الكيني ينشـدون «وادي النهر الاحمر» باللغة السواحلية. بعد حين، أصر كنياتا على أن ننضم أنا وهو إلى الراقصين والراقصات، لقد كان في وطنه، سمحاً مفعماً بالنبل والرفعة، فيما شعرت، من جهتي، وتصرفت ولا شك مثل فيل وجد نفسه في شرك، بين جماعة من الغزلان.

جوليوس نيريري وتنزانيا:

المفكر المتناقض

لـم تتح لنـا دار السلام، عاصمة تنزايـا ومحطتنا التالية، فرصـة لمتع كهذه. فنيروبـي ذات توجه ـ السـوق ـ والواقعة على ارتفاع خمسـة آلاف قدم، كانت باردة، ومزدحمة وشبـه عصرية. أما دار السلام الاشتراكية والواقعة على مستوى سطح البحر فقد كانت حارة، وسخة وفقيرة. وفي كينيا، حيث كان السعي إلى التقدم يتم عبر الصداقة مع الولايات المتحدة، فإن الفريق الذي استقبلنا في المطار كان يضم نائب رئيس البلاد وثلاثة وزراء، أما في دار السلام، عاصمة البلاد الملتزمة بعدم الانحياز، فقد جاء لاستقبال الفريق الأمريكي نائب وزير الخارجية وجماعة من المتظاهرين المعفّرين بالتراب وهم يهتفون بشعارات العالم الثالث المعادية ـ لأمريكا.

ولكونـه كان ملتزماً بكل احتـرام لقناعاته الاشتراكية، وأصدقائه الراديكاليين في العالم الثالث، فقد عمـل الرئيس التنزاني جوليوس نيريـري على ترتيب استقبال رسمي لم يكن أكثر حرارة. الدافع، على كل حـال، كان يختلف كلياً عن دافـع كنياتا. فنيريري، وهو مؤمن متزمـت بالاشتراكية، كان في صميم قلبه، يشك شكاً عميقاً بالمجتمع الأمريكي والنوايا الأمريكية.

علـى المنابـر الدولية، غالباً ما كان وزراء تنزانيا يهاجموننا بقسـوة ولم يكن نيريري يُكنّ أيَّةَ صداقة للولايات المتحدة أو يعتبر أنها أولوية وطنية، بل كان يميل للتفكير بالعلاقات معنا على أنها شر لا بد منه. وفيما كان كنياتا يسعى لأن نقدم له المساعدة لحماية بلاده ولمساعدتها على الازدهار، كان نيريري يريد أن «يستعيـر قوتنـا»، كما عبر لي بعـد بضعة أشهر، للمساعـدة في حمل الأغلبية إلـى الحكم في أفريقية الجنوبيـة وإنهـاء نفوذ الأقلية البيضاء بعد ذلك. كان كنياتا، وهو في ثمانيناته، يريد أن يحافظ على ثمار نضالـه، أمـا نيريـري وهو في ريعان قوتـه، فكان يرى نفسه مـا يزال في خضم نضالـه. «لم نخض حرب عصابات»، قال بطريقة ساخرة من نفسه: «لقد أقلقنا قليلاً ـ البريطانيين بالذات». بالنسبة إلى نيريري

كانـت الولايات المتحدة سلاحاً ينبغي استخدامه لتسريع حركـة التحرر. ومن أجل هذا، كان الرجل على أهبة الاستعداد لدفع بعض الثمن في تخفيف غلواء زملائه، وبنفور أكثر، لأن يمنح بعض الحقوق للأقليات البيضاء، بل بنفور أشد حتى لإنهاء المشاركة الكوبية في الصراع. لكن لا شيء من هذا بدّل حذر نيريري الأساسي من الولايات المتحدة ومن فكرة اقتصاد ـ السوق ذاتها:

لقد كان نيريري، الذكي والساحر، ذا تأثير في أفريقية لا يتناسب مع موارد بلاده، وهو ما يبرهن على أن القوة والنفوذ لا يمكن قياسهما بمقاييس مادية فقط. لقد كانت تنزانيا دولة مواجهة في الصراع على روديسيا، جنباً إلى جنب مع زامبيا، وبوستوانا وموزامبيق، المستقلة حديثاً. ولأن تنزانيا كانت غارقة في الصراع المسلح الذي كان دائراً في روديسيا ولأنه كان لنيريري الهيمنة الفكرية، فقد كان نيريري هو المفتاح لأي حل.

بيـد أن فهـم نيريري لما كان يشكل المصلحة المطلوبة، إنما كن يتوافق مع فهمنا توافقاً جزئياً فقط. إذ كنـا نسعـى لتحقيق تطـور باتجاه حكم الأغلبية الذي ينهـي نفوذ الاتحاد السوفيتـي وكوبا ويوفر بعض الضمانـات للأقليات البيضاء. كان نيريري قد رحب بضغوطنـا لتفكيك الأنظمة البيضاء، لكنه كان يريد أيضـاً أن نخفـف مـن دورنا بعد ذلك إلى أدنى حـد. أما استراتيجيتنا فكانت تقضـي، إذا ما نجحت هذه الزيـارة إلى دول المواجهة، بأن تعقبها مفاوضات مـع الأنظمة البيضاء ـ إذا أردنا أن نتجنب القتال حتى النهايـة، علـى أن يتضمن النقاش بعض الضمانات للأقليات الأوروبيـة. كان نيريري يرغب كل الرغبة في مناقشـة المبـدأ، تفسيره إلى أنه دفع تعويض للأوروبيين لدى رحيلهم النهائي. وبمـا أن حماية الأقليات السياسية لا يمكن إلا بالكاد أن تدعي شأناً خاصاً بالسياسة التنزانية، لم يكن بالأمر المفاجئ أن نيريري لم يكن خلاقاً ولا متحمساً حول موضوع حماية الأقليات البيضاء التي بقيت.

كثيـر من المعجبيـن الأمريكيين بنيريري كانـوا يفكرون أنه هـو وزملاؤه يجسدون القيـم الأمريكية والتقاليـد الليبرالية. وبالمقابل، كان نقاده الأمريكيون ينظرون إليـه باعتباره الناطق باسم الأيديولوجية الشيوعيـة. والحقيقـة، كلتا وجهتي النظر غير صحيحـة. فنيريري كان رجلاً نسيـج ذاته. فذلك المزيج الخاصـ به من البلاغة الليبرالية الغربيـة، والممارسة الاشتراكية، والاستقامة غيـر المتحيزة، والقبلية الأفريقية، إنما كان يقف وراءه، قبل كل شيء، رغبة عاطفية شديدة في تحرير قارّته من أصناف التفكير الغربـي، التي تعد الماركسية واحـدة منها. بكل تأكيد كانت أفكاره من صنعـه وحده. ولقد جاريت رؤساء دول ـــ المواجهـة بما فيه وعلى نحو خاص نيريـري، لأنني كنت أنظر لهم وأعاملهـم بكل جد. كنت ألتقي بهـم بشروطهـم الخاصة ولم أكن أعاملهم ـ كما كان يفعل الكثيرون جـداً من المعجبين في الغرب ـ وفق امتدادات المفاهيم الغربية المسبقة.

فـي اجتماعنـا الأول، دعانـي نيريري، وهو رجـل نحيل ضئيل، إلـى مقره الخاصـ المتواضع، علامةَ شـرف، ثم قدمني إلى أمه وعدد من أفراد أسرته. إنه رجـل جميل وأنيق، عيناه تبرقان وحركاته رشيقة.

وبتمكنــه المزعــج نوعاً ما من اللغــة الإنكليزية (إذ كان قد ترجــم يوليوس قيصر إلــى السواحلية)، كان باستطاعــة نيريري أن يكون محاوراً مغرياً. لكنه كان مفعمــاً أيضاً بعداء فولاذي. وقد أتيحت لي الفرصة لأن أرى هذيــن الجانبيــن كليهما خلال زياراتي الثــلاث إلى دار السلام، فقــد كان يفتخر بدوره المختار معلماً لشعبه، والسّمة المميزة للمعلم هي، بالطبع أنه يعرف أكثر من طلابه. وغالباً ما كان نيريري يضعنا نحــن الأمريكييــن ضمن طلابــه كما أن شعوره بأنه حامل ــ رسالة تضم الدواعــي الأفريقية لإقامة حكم الحزب الواحد، كما سبق لي ووصفت ذلك، ولم يكن يرى أن هناك داعياً للاعتذار عن ذلك:

إنهم ديموقراطيون للغاية في نصف الكرة ذاك (أمريكا اللاتينية).

عليهــم أن يقولوا أشيــاء مختلفة سراً عما هي علناً هنا، لسنا ديموقراطيين هكذا. فنحن نقول الشيء ذاته علناً كما نقوله سراً.

كانــت الديموقراطيــة التي يدافع عنها هي تحــرر الأفارقة من حكم الأقلية البيضــاء، لا ديموقراطية الحكــم التعــددي ذي الأحزاب المتعــددة. جرت محادثتنا الأولــى في غرفة جلوس صغيــرة خانقة، حيث تكلمنــا مدة خمســ وسبعين دقيقة، ومع كل منا معاون فقط (كان معي بيتــر رودمان) وقد استغل نيريري المناسبة ليوجز نهجه:

نيريري: أيها السيد الوزير، نحن ممتنون كل الامتنان لإتاحة هذه الفرصة لنا كي نلتقي بك، ولسوف نلتقــي ثانيــة هذه الليلة كمــا ستتاح لي الفرصــة لأن أقول ذلك بصورة رسميــة مع أصدقائي. إننــا نرحب كثيــراً جداً بفرصــة مناقشة مشكلاتنا معــك بشكل خاص، ثمــة مشكلات لدينا، تحرير القارة. أنتم تحتفلون بالذكرى المئوية الثانية لتحرركم، فيما نحن ما نزال على طريق التحريــر، إننا نحتفــل بذكرانا الرابعة عشــرة لتحررنا ـ تنزانيا وزنجبار. وفــي تشرين الأول ستحل الذكرى الخامسة عشرة. إذاً، بالحقيقة، ما تزال القارة قيد التحرر.

المشكلــة هي الاستعمار التقليدي كمــا هي الحال في روديسيا، أو مع صديقنــا (رئيس وزراء جنوب أفريقيــة) فورستر، العنصرية. ذلك هو وجعنا الكبيــر. إننا نعيش معه، نحاول التخلص منه، لكــن ليس باستطاعتنا ذلك دون مساعدة أو على الأقل تفهم القوى الكبرى. والتحرر، بالنسبة إلى قارة مثل أفريقية، ليس كافياً. إننا بحاجة إلى تنمية اقتصادية، وأعتقد أننا هنا في تنزانيا عالم رابع حقاً عندما يصنفوننا!...

كيسنجر: بأية مساعدة تفكر؟

نيريــري: المساعــدة في أفريقية الجنوبية ونحن سنشرح وجهة نظرنــا. إن الأشياء تتغير، إذ ما كنا نحتاجه سنة 75 قد لا نحتاجه الآن.. إننا نريد الضغط على النظام في روديسيا، نريد الضغط

علـى فورستـر بخصوص ناميبيا، وفي النهاية نريد تغييراً في جنـوب أفريقية، فليس بإمكاننا العيش وجنوب أفريقية على ما هي عليه.

أمـا بالنسبـة إلى ما يمكنكم فعله، فإن الأشياء التي نطلبها قد تكون كثيرة عليكم ضمن حدود النظام القديـم، إذ قد لا تكونـون قادرين على إعطائنا الأسلحة، لكن ما يمكنكـم أن تعطونا؟ نأمل أن تردوا على ذلك السؤال، ليس ضمن حدود قوتكم بل ضمن حدود نظامكم» .

أحـد مقاييـس ذكاء نيريري إنمـا كان تحديده لكوابح سياستنا ليس من حيـث محدودية القوة بل من حيث الموانع الداخلية.

ورداً عليه، وصفت الاستراتيجية التي اقترحناها كي نتابع الخطوط التي أوجزتها في الفصل السابع. معنى هذا، كما شددت على ذلك، أننا كنا بحاجة لمساعدة جنوب أفريقيا. لذلك وبينما كنا ندين سياسة التمييز العنصري جهاراً نهاراً، فإننا نفصل بين حل مشكلات جنوب أفريقية ومشكلات ناميبيا وروديسيا، فأجاب نيريري وهو يفكر ملياً:

جنـوب أفريقيـة أصعب، وأنا شخصياً غير متأكد من أن أفريقية منحت نفسها الكثير من التفكير، إن أفريقية تفهم قضية الاستعمار، لكنها لا تفهم تماماً مشكلة جنوب أفريقية ولم تفكر ملياً كيف تحلها.

لكـن بغض النظـر عن الاختلاف في ظروف جنوب أفريقية، ومهما تأخر الأمر، يجب أن يكون الهدف هو حكم الأغلبية.

بعضهـم يقولـون: إنها ليسـت كمشكلة روديسيـا نفسها، لكنها كذلـك. فقد يقول: سميـث لفورستر: «لحسـن الحظ أنك أعلنت استقلالك سنة 1905 (1910) وأننـا فعلنا ذلك سنة 1965. وإنه لأمر عرضي أن استقلالكم تم الاعتراف به أما استقلالنا فلا». ربما هو، لم يقل ذلك، لكنني على يقين من أن سميث، على الأقل، يفكر بقوله لفورستر.

ومـع إدراكنا بأن جنوب أفريقية هي الجوزة الأصعب كسـراً، فإننا ما نزال نقول إن الهدف في جنوب أفريقية، كما في روديسيا، هو حكم الأغلبية.

قلـت لنيريـري إنني سألقي خطاباً في لوساكا لا يدعم حكم الأغلبية من حيث المبدأ وحسب، بل يضع برنامجاً لإنجازه. مع ذلك، فإن التنسيق بيننا مشروط شرطاً مطلقاً بألا يسمح للقوات الكوبية والمستشارين السوفييـت بالتدخل في الكفاح المسلح ضد روديسيا. ثـم هناك شرط آخر وهو أن لا تشكل وحدات حرب عصابـات خـارج سيطرة دول المواجهة، في أقاليمهم حيث يمكـن أن تنقلب بعدئذ إلى سلطات مركزية ـ كمـا هي حال منظمة التحريـر الفلسطينية في لبنـان، أو الفيتناميين الشماليين فـي المناطق الحدودية لكمبوديا. رد نيريري بأنه لم يكن يريد أياً من القوى الكبرى أن تحشر نفسها في أفريقية تحت أي غطاء:

«فحين تعمل إحدى هذه القوى، ستعمل الأخرى» . ثم أجل المزيد من النقاش إلى اليوم التالي حين ينضم إلينا وزراؤه الرئيسيون في اجتماع آخر. ذلك اليوم، 26 نيسان، بدأ بعرض ملعب رياضي احتفالاً بالذكرى الثانيــة عشرة للحدث الــذي تشكلت فيه تنزانيــا، أي بالتحديد اتحاد طنجنيقا مــع زنجبار، وهي جزيرة قريبة تماماً من الشاطئ كانت تاريخياً قاعدة للتجارة وللغزاة العرب وكانت ما تزال تحتفظ بعدد كبير من الســكان العرب. لقد شكك دارسو الشؤون الأفريقية بعفوية هذا الاتحاد أو التزامه بمبادئ حكم الأغلبية. لكن في ذلك الصباح الرطب الحار، كانت الوحدة هي الكلمة المهيمنة على الجو كله.

جلســت أنــا ونيريري في مقصــورة الرئاســة، وكان يبدو بارداً وأنيقــاً في بزة رماديــة خفيفة مبطّنة بالمعــدن، فشعرت بالحرج وعــدم الراحة في بزتي الزرقاء، بزة الدبلوماســي المقلمة تقليماً رفيعاً. ولقد عكــس العرض شيئاً من التدريب الذي كان يتلقــاه الشخص التنزاني في ألمانيا الشرقية الشيوعية – لكن كانــت تعــوزه الدقة بشكل من الأشكال، فتعليم الجيش على مشيــة الإوزة كان من الواضح أنه تم حين كان الجنــود يلبســون أحذيــة من طراز ـــ بروسي، بينما هــم في يوم العرض يلبسون أحذيــة محلية: صنادل أفريقيــة، والنتيجــة هي أن الحــذاء كان بين الحين والحين يخرج من القدم ويطيــر في الهواء، مما يجبر الجندي التعيس الحظ على المتابعة وهو حاف بقية الطريق.

بعد العرض، جمع نيريري مجموعة أكبر من مجموعة الغداء. وبإنكليزية جميلة الإيقاع، شرح لأعوانه النقاط التي كان قد شرحها المساء السابق في منزله، مع تأكيد خاص على اهتمامي بشأن التدخل الكوبي والسوفيتــي، ثم قــال نيريري إنه سيبذل ما في وسعه لمنع انتشار الجنــود الكوبيين في موزامبيق ـ البلاد الوحيدة في أفريقية الجنوبية التي يمكن من وجهة نظره أن تستقبلهم. كما قال: إنه سيعمل على انسحابها مــن أنغــولا، فتواجد قوة عظمى، من أية جهــة كانت، أمر غير مُرحّب به في أفريقيــة الجنوبية. والحقيقة أن نيريــري كان يخشــى تواطــؤ القوى العظمى بقدر مــا كان يخشى صراعها، وكانــت قمة منظمة الوحدة الأفريقيــة التــي عقدت في كانون الثانــي 1976 قد تناولت القضية بالبحث. فعلــى الصعيد الرسمي كانت القضيــة هــي ما إذا كان ينبغي الاعتراف بحكومة لاوندا التي تدعمها كوبا والاتحاد السوفيتي أم لا، وذلك بعــد شهر من منع «تعديلات طوني» تقديم أية مساعــدة أمريكية لخصومها. نتيجة التصويت كانت عقدة الثلاثة والعشرين مقابل ثلاثة وعشرين. «لم تكن تلك أصواتاً أفريقية» قال نيريري : «بل كان هناك ثلاثة وعشرون صوتاً لصالح الولايات المتحدة وثلاثة وعشرون صوتاً لصالح الاتحاد السوفيتي.. ولا بلد ولاأحد صوّت لصالح أفريقية».

باختصــار، أعلن نيريري أنه سيدعم الضمانات الدستورية لأولئــك الأوربيين الذين يختارون البقاء، كمــا سيدعــم المساعدة في إعادة التّوضع بالنسبة إلى أولئك الذين يرغبون في الرحيل، مع توضيحه بكل جــلاء أنه يفضــل إعادة التوضع، وأنــه ما إن يقبل سميث مبــدأ حكم الأغلبية حتى يقــوم نيريري بتسليم

«حركـة التحـرر» إلى مؤتمر، ويدعم وقـف ـ إطلاق النار، وينظر في جعل الإمـدادات الموجهة إلى حركة التحرر التي تمر عبر هيئات دول المواجهة وليس مباشرة إلى وحدات حرب العصابات، وبالتالي تخفيض نطـاق التدخل الخارجي. كما عرض نيريري، علامةً علـى حسن النية، أن يأتي بوزراء دول المواجهة، بما فيهـم الموزامبيي، ليلتقوا بي بغية مراجعة الاستراتيجيات المتوازيـة الممكنة ومناقشتها، على أن يجري هـذا في نهاية رحلتي الأفريقيـة، أي بعد عشرة أيام، حين أعود في طريقي إلى نيروبي كي أخاطب مؤتمر الأمم المتحدة حول التجارة والتنمية.

لقـد كان نيريري مفتاح دول المواجهـة، كما كان يشكل الجسر بين المعتدلين مثل رئيس زامبيا كنيث كاونـدا ورئيس بوتسوا ناسيريتس خاماً من جهة، وبين المتطرفين مثـل سامورامشيل وأغوستينونيتو في المستعمرتين البرتغاليتين السابقتين: موزامبيق وأنغولا، من جهة أخرى. فقلت في تقريري إلى فورد:

ليـس لدي أوهام: فهـو سيظل معارضـاً إيديولوجياً ولسوف يراقـب أعمالنا فـي المستقبل بصراحة شديـدة. مـن جهة أخرى، لديه بالتأكيد تفهُّم أفضل لدوافعنا ونوايانـا؛ كما يرى الفرصة المتاحة لأعمال متوازيـة، وهو ذكي إلـى حد كاف لأن يأخذ بحسبانـه نقاطي المتعلقة بالرأي العـام الأمريكي، كما يفهم أن مـن مصلحته الخاصـة أن ييسر المسائل لنا، ولسوف يستخدم نفـوذه الكبير لدى الآخرين في قضايا أفريقية الجنوبية.

كنيث كاوندا: المعتدل النظري:

لزامبيا خط حدودي طويل مع روديسيا واقتصاد البلدين مترابطان كل الترابط. والحقيقة أن زامبيا. قبـل الاستقلال، كانت تدعى روديسيا الشماليـة، وكان استخراج النحاس، وهي صناعة زامبيا الأساسية، مرتهناً بنزوات جارتها لأن طرق شحنها الرئيسية ومواصلاتها مع العالم الخارجي تمر عبر روديسيا. فإذا اشتـد الصـراع المسلح، كانت زامبيا تجد نفسها ملأى بجيوش حـرب العصابات المتنامية. وعلى الرغم من تطمينات نيريري النابعة من حسن – النية، لم يكن باستطاعته لا هو ولا كاوندا، بالنتيجة، أن يتحكما أو يسيطـرا علـى هؤلاء الضيوف، الذين يمكن لقوتهم في المستقبـل أن تتفوق على قوة الجيشين الزامبي والتنزاني معاً.

بـل إن كاوندا لـم يكن يريد ما يدعى بالقوات الخارجية (التي قادها فـي النهاية روبرت موغابي) أن تسيطر على روديسيا. إذ كان يخشى من أن تؤثر عنصريتها في زامبيا كما يخشى من ارتباطاتها المحتملة مـع البلـدان الشيوعية. سنة 1975، وبسبب الضغوط الكبيرة وحدها تلك التي مارسها عليه جيرانه، اقتنع بـأن يوافـق على تصعيد الكفاح المسلح. ورغم براعتهما في لعب دور القوة العظمى واحدهما تجاه الآخر، فـإن كاونـدا ـ بالمقارنة مع نيريري ـ كان يشعر بوضوح أنـه أكثر راحة مع الغرب. ذلك أن الطموح لتلميع صورتـه أمـام العالم الثالث كان من الممكن أن يقوده إلى مواجهـة كلامية متطرفة مع الولايات المتحدة،

لكن في نهاية المطاف، كنا نعلم أن انفجاراته بين الحين والحين لم تكن تعني أكثر من سعيه لدور قيادي ولا علاقة لها بقناعات أيديولوجية.

كان كاوندا، الطويل والمتين البنيان، شخصية آسرة. فهو، بشعره الأبيض، وعينيه البراقتين، وابتسامته الجاهزة كان ينضح سلطته، وهو، بتحصيله العلمي الذي يعادل شهادة ثانوية فقط، رغم أنه عالي الذكاء، لم يكن باستطاعته أن ينافس الهبّات البلاغية التي كان يقوم بها جوليوس نيريري، غير أن قوة كاوندا كانت تكمن في نزعته العملية وفطرته السليمة. إذ كان الزعيم الأفريقي الأول الذي يفاوض إيان سميث وفيما بعد رئيس وزراء جنوبي أفريقية فورستر.

كان كاوندا يعتمد على الولايات المتحدة للسيطرة على أزمة أفريقية الجنوبية، وبصورة خاصة، للمناورة بصديقه جيوشوا نكومو كي يلعب الدور القيادي في روديسيا وفق شروط حكم معتدل. المشكلة هي أن «المقاومة الخارجية» التابعة لموغابي كان في يدها معظم الأسلحة، كما كانت تعوق نكومو أصوله القبلية، فهو، كونه متحدراً من النديبيل، أحد فروع الزولو، كان ينتسب إلى السلالة التي تضم ثلث السكان روديسيا كحد أقصى، فيما تتكون المقاومة الخارجية «بشكل أساسي من قبيلة الشونا المهيمنة» .

تلك التعقيدات جرَّت كاوندا إلى مناورات معقدة خصّص فيها للولايات المتحدة، دور «الكائن الخارق الذي يصنع العجائب»، إذ كان كوندا يريدُ أن نوصل الأمور إلى النتيجة المفضلة لديه، دون إجباره على أن يدفعها إلى الأمام بنفسه مع السماح له بين الحين والحين بالتخلي عما كان هو نفسه قد أوصى به. لقد ظل على اتصال معنا من خلال عدد من المبعوثين، أهمهم هو، مارك تشونا الذي سبق وذكرته. العائق الذي كان قائماً هو أنه إذا لم تقنع الخطة المقترحة، في النهاية، رؤساء دول المواجهة الآخرين، فمن المحتمل تماماً أن ينضم كاوندا إلى إجماع الرأي الأفريقي ويتركنا هكذا مكشوفين. إنه الثمن الذي كنا نرغب في أن نغامر من أجله عادة، مقابل اعتدال كاوندا، وفطرته السليمة، وشعوره الودي المستمر.

بمثل هذه المشكلات العملية الكثيرة التي تواجه كاوندا، وجه الرجل اجتماعنا «باتجاه قضايا ميدانية، ومنها مسألة كيفية توجيه الضغوط إلى روديسيا وتأمين دعم فورستر. فتبين أن كثيراً من الاقتراحات – التي تقدم بها كاوندا كنت قد ضمنتها مسبقاً في خطابي الذي كان مخططاً له وقت الغداء. كما برهن أنه أقل حقداً وضغينة فيما يتعلق بحقوق الأقليات الأوروبية من نيريري:

لم يقل الزعماء الأفارقة يوماً من الأيام إنهم سيتعقّبون أحداً. فكلنا أفارقة، وللبيض في جنوب أفريقية حقهم في العيش في بلادهم ذاتها. لكن قضية أفريقية الجنوبية هي قضية حياة وموت. أما بالنسبة إليك، أيها السيد الوزير، فالمسألة الخاصة بقرارك هي مالذي تريد أن تفعله كي تجعل الحياة أكثر معنى بالنسبة إلى الجميع. على أن قرارك بالمجيء إلى هنا يبين أنك ترغب في إيجاد حلول لمشكلات أفريقيا الجنوبية.

أحـد اهتمامـات كاوندا الرئيسية كان في أن أتكلم إلى جيوشـوا نكومو. ومن ثم أنقل الدعم الأمريكي لهـذا القائـد الذي كان كاوندا توّاقاً لأن يراه يمسك بزمام الحكـم الروديسي. بيد أن كاوندا لم يكن يريد أن يفهم بأنه هو الذي رتب الاجتماع. لذلك دعوت نكومو لزيارتي في فندقي، كما أرسلت دعوات أيضاً إلى زعمـاء المقاومة الروديسية الآخرين. ولأنهم لم يكونوا يريديون أن يبدو كاوندا وكأنه راعي حركة التحرر الروديسية بكاملها، فقد رفضوا المجيء إلى لوساكا عارضين عليّ أن يلتقوا بي في واشنطن.

كان لنكومـو، وهو رجل كالجبـل طويل وذو وزن ثقيل جداً، جذع بدا وكأنه يتمدد حين يواجه إحباطات سياسيـة، لكـن في تلك المناسبـة وذلك الظرف، بدا معقـولاً وتحت السيطرة. ولعل هـذا كان لأننا نعقد اجتماعـاً في أقصى حـدود تطلعاته. فمع انشغال الولايات المتحدة، وتوجـه كاوندا الحسن، وعدم توصل المقاومـة الخارجيـة إلى التنظيـم الكامل بعد، كان باستطاعـة كاوندا أن يأمل بوراثـة السلطة ـ شريطة أن يتـم نقـل الحكم إلى الأغلبية بسرعـة تامة. ذلك أنه إذا ما تطورت حرب عصابـات حقيقية، فإنه من المحتمـل أن يصبح «الصبية ذوو البنادق»، كمـا كان نيريري يدعوهم، هم المهينين. لقد أوجزت لنكومو مجمل خطابي القادم، فأكد لي أن هناك مكاناً آمناً للبيض في زمبابوي وفق حل يتم التفاوض عليه.

غالبـاً مـا تتكشف أحداث طال ـ توقعها، لاسيما حين يتـم التركيز على عمل مفرد كخطاب مثلاً، عن أنهـا ليسـت أحداث ذروة. غير أن هذا لم يكن هي الحـال فيما يتعلق بخطابي في لوساكا. فتأثير الولايات المتحـدة، ممثلـة بشخص وزير خارجيتها، وهـي تلقي بثقلها الدبلوماسي كله خلـف برنامج محدد لحكم الأغلبية في أفريقية الجنوبية، كان مثيراً.

أمـا الإطـار الذي ألقي فيه الخطاب فلـم يكن يضاهي المدى الذي كان في نيتنا التوصـل إليه. لقد ألقي في غـداء خاص تقريباً، رتبـه كاوندا ولم يحضـره أكثر من خمسين شخصـاً جلسوا حول طاولـة طويلة جداً. ومن الواضح أن كاوندا رتبها على هذا النحو بحيث لا يفقد الكثير من ماء الوجه إن لم أقدم ما كنا قد تواعدنا عليه.

فـي نهايـة الصالة وضعت منصـة، فيما كان رجال الإعـلام، الأمريكيون والمحليـون على حد سواء، يفوقـون الضيوف النظاميين عـدداً. وعلى الرغم من أن كاوندا قدمني بكثير مـن التهذيب، فإن الكلمات التـي استخدمها نقلـت المفردات المعيارية للعالم الثالث المفعمة بانتقـاد القوى العظمى وشرورها. لكن ما إن شرعت في الكلام حتى طرأ على سلوكه تغير مثير. فقد تتبع كلماتي بانتباه شديد، ثم بدأت الدموع تنهمـر على وجنتيه. وحين انتهيت، هب كاوندا يعانقني قائـلاً: «بعضنا كان مشحوناً عاطفياً وأنت تتكلم. إذ لم يكن باستطاعتنا أن نصدق أن هذا هو وزير الخارجية القادم من واشنطن».

لقـد قدمـت في خطابي برنامجاً من عشر ـ نقاط يلتزم التزامـاً مباشراً بحكم الأغلبية في روديسيا. وقد حثَّيت جنوب أفريقيا على تحديد موعد أخير ثابت ومبكر لمنح ناميبيا حق تقرير ـ المصير، وناميبيا هي الإقليم الذي وضع تحت حمايتها سابقاً.

كمـا دعوت، بعد إدانتي لسياسة التمييز العنصري في جنوب أفريقيا، إلى ارتقاء «واضح» ضمن فترة زمنيـة «معقولة» باتجاه المساواة وحقوق الإنسان الأساسية. لكنني أشرت أيضاً إلى استعداد أمريكا لمنح جنوب أفريقية الوقت لإنجاز هذه التحولات الهامة جداً، طالما كان واضحاً «تكريسه لأفريقيا» من خلال ما يقدم من عون للتوصل إلى حكم الأغلبية في روديسيا. ذلك، ببساطة كان يعني ممارسة الضغط على نظام إيـان سميـث. إذ أضفت «وإننا على يقين من أنه سينظر إلى هذا بكل إيجابية من قبل المجموعة الدولية، وكذلـك من قبل بقية أفريقية. أخيـراً اقترحت ضمانات لحماية حقوق الأقلية بعـد الاستقلال عارضاً أن نكرس بعض المساعدة الاقتصادية الأمريكية الموعودة لأفريقيا الجنوبية من أجل هذه الغاية[1].

وتلخص الموقف الأمريكي الجديد الفقرة الإجمالية التالية:

مـا تحتاجه أفريقية الآن مـن الولايات المتحدة ليس الوعـود الفائضة أو التعابيـر العاطفية عن الود والرضا. بل إن ما تحتاجه هو برنامج محسوس ملموس، سعيت لأن أقدمه اليوم، لذا، دعونا نباشر العمل. دعونـا نوجه أعيننا باتجـاه أهدافنا العظيمة – الاستقلال الوطني، التنميـة الاقتصادية، العدالة العرقية – وهي الأهداف التي لا يمكن تحقيقها إلا بالعمل المشترك...

وهكـذا، دعونا نقـل: إن على الشعبين الأسود والأبيض أن يعملا معاً، كي يتوصلا في هذه القارة، التي عانـت الكثيـر الكثير وشهدت من الجور الكثيـر الكثير، إلى عهد جديد من السـلام والرفاهية، والكرامة الإنسانية »[2].

وكما تبين، كان لخطاب لوساكا أثر مباشر ومثير في الولايات المتحدة إذ كنت قد تركت واشنطن في 23 نيسان، وكان خطاب لوساكا سيلقى في 27 منه، وفي 1 أيار، كان فورد، وهو في خضم حملته الانتخابية المريـرة ضد رونالد ريغان، سيهزم هزيمة كارثية في الانتخابـات الأولية للحزب الجمهوري في تكساس. نتيجة لذلك، زعم بعض الخبراء والسياسيين أن دعمنا لحكم الأغلبية، ـ الذي فسره الناس على أنه تخلٍ عـن السـكان البيض في جنوب أفريقية ـ هو الذي حوّل اندحار فـورد المحتمل إلى طامة كبرى. وقد توزع اللوم بين تهوري المزعوم وبلادة فورد السياسية.

ففـي اجتماع مع الرئيس، ذكر مساعد زعيم الجمهوريين في مجلس الشيوخ، السيناتور روبرت غريفن مـن متشيغـان، أن الزعيم الجمهوري «يقترح أن على الوزير كيسنجر أن يولـي». أما زعيم الجمهوريين في المجلـس النيابـي، جون رودس من أريزونا، فقد وجد أن رحلة أفريقيـة سيئة ـ التوقيت، مضيفاً أن «هنري كيسنجـر، في رأيي، كان وما يزال وزيراً رائعاً للخارجية». بل الأكثر من ذلك أنه أعلن أن «إحدى العلامات الحقيقيـة لعظمتـه هي أنه سيعرف متـى يكون قد تجمع لديه ما يكفي من الكلابـات والندوب بحيث لا يعد باستطاعته أن يكون وزيراً فعّالاً للخارجية». (ثم قال ناطق فيما بعد إن رودس لم يكن يعني بتلك الملاحظة الأخيـرة الإشارة إلى أنـه يوصي بمسار كهذا ـ وبالتالي يكرر الوكزة مرة ثانية). وعلى نحو موجز أقل نوعاً

ما، فإن الجمهوري روبرت ميشيل من إلينوي، وهو مساعد زعيم الجمهوريين في مجلس النواب، اقترح أنه ينبغي «تكميمي» (3). على أن سياستنا الأفريقية لم تكن بالمفاجئة لنقادنا في الداخل. إذ كنا نتكلم عنها ضمن عناصر الحكم، إلى الكونغرس، والزعماء الأجانب وفي مؤتمرات الإعلام منذ الانهيار الذي حدث في أنغولا في كانون الأول على الأقل، كما سبق ولخصت ذلك في الفصول الأولى. كذلك كنا قد أوضحنا نيتنا أيضاً في أن نوفر الضمانة لحقوق الأقلية البيضاء في أي ترتيب دستوري جديد ينبثق من مبادرتنا الأفريقية. رغم ذلك، فقد سببت سياستنا العملية، بما اتصفت به من حسم وقوة اكتساح، المفاجأة.

لقد أوجزت، في تقرير أرسلته إلى سكوكرفت، استراتيجيتنا على أمل أن ينتفع بها المحافظون الشموسون:

«إننا نقايض دعمنا الدبلوماسي بعدم السماح للكوبيين والسوفييت بالتدخل (انظر تقرير حول زامبيا إلى الرئيس). إننا، بتأكيدنا على الوحدة الأفريقية، نستطيع مقاومة التدخل السوفيتي والكوبي أو الأطراف الداعمة. وبإيجاز، فإن مقارنة المسألة في الخطاب يمنحنا موطئ قدم كي نمنع قيام أنغولا جديدة في المستقبل ـ وهو الاحتمال الوحيد الممكن فقط في الظروف الراهنة».

في اليوم التالي، حصل نقادي على ما كانوا يتمنونه تقريباً عندما ذهبت أنا وفريقي إلى ليفينغستون لنلقي نظرة على شلالات فكتوريا الرائعة، أعلى شلالات العالم، تبع إثر جولة في القارب في نهر زامبيزي، تم ترتيبها جزئياً لأن وليم سكرانتون سفيرنا إلى الأمم المتحدة، كان قد ذكر في تقرير له أنه رأى تسعة عشر فرس نهر في آخر زيارة له. عندما وصلنا إلى رصيف النزول وجدنا أن قارب النزهة المألوف ـ والذي يفترض أنه واسع ـ قد تحطم. فيما كان القارب البديل يتسع لسبعة عشر شخصاً فقط، وغير لائق بتاتاً بفريق وزير خارجية أن يقوم برحلة في بلد أجنبي. لكن في ذلك الوقت، كان الرسميون الزامبيون وكذلك عناصر السفارة والأفراد الآخرون الذين كانوا يعتبرون أنفسهم ضروريين ولا بد منهم، قد حشروا أنفسهم فبلغ العدد الإجمالي على ظهر القارب خمسة وعشرين شخصاً.

بعد الإقلاع مباشرة بدأنا نغوص في الماء. فقد ارتفع المستوى على نحو ينذر بالخطر إلى حد ما، نظراً لأن أسطول الأمان الصغير المرافق لنا وكذلك زوارق وسائل الإعلام كلها كانت تئزّ حولنا مما أدى إلى ارتفاع أمواج كبيرة نوعاً ما. وعند إحدى النقاط، بدأ المحرك يفرقع طارحاً احتمالين: إما أن تنهي تحركنا باتجاه الشلالات الرائعة التي كنا قد أبدينا إعجابنا الشديد لها لتونا من مكاننا الأمين على البر، وإما أن نواجه نهر الزامبيزي المليء بالتماسيح. لحسن الحظ ما من كارثة منهما حدثت، لكن حتى ذلك الحين لم نكن قد رأينا أيَّ فرس نهر أيضاً، فعرض أحد الصحفيين، على سبيل المساعدة، أن يضفي لمسة إيجابية على القصة مقترحاً أنه سيذكر في تقريره، أنه رأى تسع عشرة فرس نهر أقل من العدد الذي رآه السفير سكرانتون.

أمـا رد فعـل موسكو على رحلتي إلى أفريقية فقد برهنت علـى أن السوفييت فهموا استراتيجيتنا على نحـو أفضـل مما فهمها نقادنا فـي الداخل. فالهدف الرئيسـي لرحتلي، بحسب البرافدا، هـو «أن أحاول عرقلـة تقوية سلطة الاتحـاد السوفيتي وكوبا في أفريقية»، وقد أدان معلق إذاعة موسكو اقتراحي بأن على حـركات التحـرر «أن تعتمد علـى جهدها الخاص دون أن تطلـب المساعدة من البلـدان الأخرى»، لكونها «تتناقض تناقضاً كاملاً مع مبادئ دعم الحرية واستقلال الأمم جميعاً».

بخطابـي فـي لوساكا، كانـت استراتيجيتنا الأفريقية تأتـي في المكان المناسـب، أولاً، اتفاق مع دول المواجهـة علـى استراتيجية شاملـة بخصوص أفريقية الجنوبيـة، بعدئذ زيارة إلى بعض بلدان أفريقية الوسطى والغربية لطمأنتها حول نفوذ أمريكا الباقي، وتأمين دعمها المنابر الأفريقية، وأخيراً العودة إلى نيروبـي لحضور اجتماع الأمم المتحدة للتجارة والتنمية بغية وضع النمو الاقتصادي الأفريقي في السياق العالمي وتقديم برنامج تنمية لعموم أفريقية يتجاوز الأزمة المباشرة.

موبوتو: الحليف المثير للجدل:

على الرغم من أن كل محطة من محطات رحلتي كانت تترك أثراً بارزاً، لكن بعد لوساكا، كنت ممزقاً بيـن أحاسيـس مفاجئة مختلفة: هل علي أن أعود إلى الوطن كـي أمد يد العون إلى الرئيس المحاصر وهو يخوض معركتـه الداخليـة التي جعلها خطابي فـي لوساكا أصعب كثيـراً أم لا؟ كنت أعلـم أن مستشاري فـورد سعداء تماماً في أن أبقى في أفريقية أسبوعاً آخـر، نظراً لأنني قد صرت دريئة السياسة الخارجية الرئيسيـة في حملة ريغان، دون الاهتمام بأن أحد الأهداف الرئيسية للرحلة كان إيجاد قاعدة يمكن منها مقاومة انتشار الشيوعية في أفريقية.

وهكذا، وجدت نفسي، وذهني في واشنطن، مساء 28 نيسان 1976، في مطار كينشاسا، أستمع، يحيط بي عشرات الراقصين والراقصات المتثنين والمتثنيات على شرفي، إلى طبول التوم ـ توم العملاقة وهي تقـرع إيقاعـاً لا بد أن أصداءه كانت تتردد على بعد عشرين ميلاً مـن العاصمة. هناك كان في استقبالي وزير الخارجية نغوزا كارل ـ أي ـ بوند الذي سبق والتقيت به قبل شهرين في واشنطن عندما اتصل بفورد كي يعبر عن الاهتمامات الزائيرية بما ستتوصل إليه الأزمة الأنغولية.

كانت حياة نغوزا المهنية تغطي الطيف الكامل للتقلبات التي مرت بها السياسة الزائيرية، فهو، الذكي إلـى درجة عالية والقاسـي إلى حد متطرف، وصف نفسه، ونحن نتناول الإفطـار في 29 نيسان، بأنه أحد أفـراد قبيلة تنتشر في كل من زائيـر وزامبيا، وأنغولا، وأن زعيم القبيلة هو، في الحقيقة، عمه. أما ما إذا كان وزير للخارجية بقاعدة نفوذ واسعة كهذه خطراً جداً على موبوتو أم لا، أو ما إذا كان هناك سبب آخر، فإنـه لـم تمض سنتان على الأحداث المذكورة هنا حتى أُتهم نغـوزا بالخيانة العظمى. وقد حكم بالإعدام وألقي في السجن ـ الذي هو عملياً ثقب في الأرض ـ بانتظار إعدامه. غير أن توسط شميدت، وجيسكار،

وكالاهان، وأنا نفسي، وآخرين ممن عملوا مع نغوزا، دفع موبوتو لأن يعفو عن وزير خارجيته، على أن هناك احتمالاً آخر وهو أن العملية كلها كانت مخططة بهدف وحيد: تعليم نغوزا من هو الرئيس في زائير.

بعد أكثر من سنتين، أعاد موبوتو تعيين نغوزا وزيراً للخارجية وحين زار الاثنان المتصالحان حديثاً نيويورك، تناولت الإفطار معهما في جو من المودة المتبادلة الملأى بالعواطف. لكن لم تمر ثلاث سنوات أخرى، حتى عزل نغوزا من منصبه وحكم مرة أخرى، بالإعدام. غير أنه هذه المرة كان حصيفاً فاختار أن ينفى إلى بروكسل، حيث ترأس جماعة معارضة مضادة لموبوتو.

رافقني نغوزا إلى قصر الضيافة الذي يحجز عادة لرؤساء الدول وكمجاملة خاصة، كان موبوتو قد وضع القصر تحت إمرتي أنا ورفيقي. والقصر عبارة عن صرح من الرخام مزخرف بجداريات زاهية الألوان لم تفلح قط في اجتياز الخط الفاصل بين التباهي والجاذبية. لقد خُصّص لي جناح كبير، سِمَته المميزة هي وجود غرفة فيه ثمانية الأضلاع لا تحوي إلا كرسياً هزازاً ونضّداً مهيباً فيه عدة مفاتيح كهربائية. «بهذا ستتمكن من النظر عبر مرايا أحادية ـ الاتجاه إلى غرف أعوانك ورؤية ما يدور فيها»، أعلن رئيس التشريفات. وبما أنني لم أجرب ذلك النضد، فإنني ما زلت لا أعرف ما إذا كان جاداً أم أنه كان يجر رجلي وهو يريني غرفة التلفاز.

من الأمور العادية بالنسبة إلى النقاشات الأكاديمية والإعلامية حول السياسة الأمريكية في أفريقية، الفكرة القائلة إن «الدعم» الأمريكي لموبوتو طيلة حكمه الذي دام سبعة وثلاثين عاماً، إنما هو الدليل الأكيد على تفضيل الأمريكان للحكام المستبدين الداعمين لسياسات الحرب الباردة على الزعماء الديموقراطيين الخالصين. هذه الحجة قال بها علناً الرئيس كلينتون عندما قام برحلته إلى أفريقية سنة 1998، وكانت تعكس الإطار الذهني للجيل الآتي من عصر مطلع السبعينيات إلى حد أكبر بكثير، مما تعكس حقيقة الوضع الإفريقي. ذلك أن الأغلبية الساحقة من الزعماء الأفارقة خلال عقود الاستقلال الأولى كانوا قادة لبلادهم في الكفاح من أجل الاستقلال. ولم يكن هناك من بدائل منظورين، ديموقراطيين أم غير ديموقراطيين. وباستثناء زائير، ليس بوسعي أن أفكر بزعيم أفريقي واحد يدين بحكمه لدعم ظاهر أو حتى خفي من الولايات المتحدة. بل في زائير نفسها، لم يكن البديل ديموقراطياً، بل هو بطل أسطوري أوتوقراطي من العالم الراديكالي.

لقد أثيرت قضية الدعم الأمريكي حصراً في بلدان مثل زائير وفيما بعد أنغولا حيث كان رحيل القوة الاستعمارية قد ترك فراغاً سياسياً، وهو الفراغ الذي كانت مختلف الحركات الشمولية كلّانية السلطة تتنافس على ملئه. في تلك الأوضاع، كان الرؤساء الأمريكيون من كلا الحزبين يميلون لدعم الحركات التي تعارض زعماء يسيطر عليهم أو يدعمهم الاتحاد السوفييتي، والقرارات السياسية التي لا تسمح باختيار حقيقي ليست بتلك القرارات الصعبة.

زائيـر واسعة شاسعـة ـ بمساحة أوروبا الغربية ـــ وقد أصبحت دولة قومية واحـدة فقط: لأن بلجيكا اختارت أن تحكمها كإقليم واحد، وقد فعلت ذلك لأنه، حتى 1908، كانت زائير ملكاً شخصياً لملك بلجيكا. السبب الآخر هو أنه عندما تقسّم الإقليم الأفريقي بين القوى الأوروبية، ترك شريط ساحلي صغير فقط، لما أصبح فيما بعد زائير. لهذا، كانت الوحدة إلزامية وذلك جزئياً لأسباب إمدادية تموينية.

نتيجـة لذلـك، طورت مختلـف القبائل ـ الناطقـة بلغات مختلفة ـــ شعوراً قومياً أقـل حتى مما فعلت القبائـل في أنحـاء أخرى من أفريقية. إضافة إلـى ذلك، لم تكن القوة الاستعماريـة البلجيكية قد أعدت ولا صقلـت جماعة محلية من الزعماء المتعلمين. وهكذا، لأسباب إيديولوجية جزئياً وقبلية إلى حد كبير، نشبـت حرب أهليـة كان فيها الحلفاء الغربيون ـ الذيـن اتحدوا لمرة واحدة ـ يعارضـون أولئك الزعماء والحركات التي يدعمها ويدعمهم الاتحاد السوفيتي. فقد كانت الولايات المتحدة، وفرنسا، وبلجيكا، وإلى حـد ما بريطانيا، تعتبر الدعم الذي تقدمه لموبوتو هو أهون الشرور. لقد هزم موبوتو المتطرفين، ووضع حـداً للحروب القبلية، ثم لم يحكـم حكماً مختلفاً كلياً عن معظم جيرانه إلا فـي السنوات العشر الأخيرة مـن عهده. كما أنه ما من مشكلة من المشكلات التي كانت الديموقراطيات تواجهها في أفريقية الجنوبية عام 1975 و1976 كان بالإمكان أن يحلها الإطاحة بموبوتو. والحقيقة أن كثيراً من تلك المشكلات تفاقمت نتيجة القلاقل في زائير.

لقد توصل رؤساء شتى مثل كينيدي، وجونسون، ونيكسون، وفورد، وكارتر، وريغان وبوش إلى الاستنتاج ذاتـه وهـو: أن أخطار الإطاحة بموبوتو تفوق الفوائـد المفترضة، ولم يكن بالإمـكان أن تتحرك أيّةُ إدارة ضـده إلا بعد انتهـاء الحرب الباردة، حين تحركت إدارة كلينتون أولاً من خـلال فك الارتباط معه، وثانياً مـن خـلال التواطؤ للإطاحة بـه. بل حتى حينذاك، لـم يتم إسقـاط موبوتو بعناصر محليـة ولا بعناصر ديموقراطية. بل ما أطاح به هو قوى من الدول المجاورة مثل أوغندا، وراوندا، وأنغولا، التي تحركت ضده إثـر انتهائهـا من حروبها الأهليـة ذاتها. كما لم يكن يقود تلك القوات شخصـ أكثر ديموقراطية البتة بل كان لورنت كابيلا، تلميذ باتريس لومومبا وتشي غيفارا، اللذين قبل جيل فقط، كانت البلدان الغربية كلها تنظـر إليهمـا باعتبارهما متطرفين جـداً. أما بالنسبة إلى هذه الكتابة، فيظـل علينا أن نرى ما إذا كانت الإطاحـة بموبوتـو تحسن وضع حقوق الإنسان في الكونغو أم لا، ومـا إذا كانت تحسن الاستقرار السياسي فـي المنطقـة أو الوضع الأمريكـي في القارة أم لا. والمعروف هو أن وصول كابيـلا إلى السلطة رافقه قتل جماعـي إلـى درجة تفوق بكثير وتغطـي الانتهاكات التي قام بها موبوتو، الـذي كان ذنبه الأشد هو الجشع للمال أكثر مما هو الشهوة للدم.

لقـد دعمت الإدارات الأمريكيـة المتتالية علاقة العمل مع موبوتو، نظراً لأن ما من واحدة منها أرادت أن تزيد الاضطراب في أفريقية الوسطى أو تضيف أزمة جديدة إلى القائمة الملأى حتى الحافة بالأزمات

الخارجيـة. وقـد كان زمـلاء موبوتو الأفارقـة يشاركونها هذا الموقـف. فأولئك، الذين كانـوا قد خاضوا معاركهـم من أجل الاستقـلال، ربما كانوا يسخرون منه بوصفه مدعياً مغـروراً، فيما كان آخرون يهزؤون منـه لأسلوبه الإمبراطوري، لكنهم جميعاً كانـوا يعاملونه كعضو محترم في ناديهم ـ ولعله كان مفرطاً في زخـارف السلطة المسرفة، التي ربما حاول بعضهم أن يقلده فيها، لو أنهم كانوا يملكون ثروات زائير. كما أنهم داخلياً كانوا يفهمون أن موبوتو ـ وبالتحديد لأنه لم يكن قد حظي بالمباركة نتيجة شنه كفاحه الخاص مـن أجـل استقلال وطنه ـ كان بحاجة إلى التباهي الـذي كان يستمتع به بكل وضوح كي يصنع حول نفسه هالة من السلطة الطاغية ومن المهابة.

فزائير التي تحدها ثلاث عشرة دولة، كان يمثل أمامها احتمال مخيف بأن يقوم فيها اضطراب، سواء مـن خـلال متابعة سياسات راديكالية وإم ببساطة من خلال الوقوع في الفراغ. ذلك هو السبب الذي جعل إدراة كنيدي تدعم موبوتو ضد لومومبا في الستينيات، أما سنة 1978، فإن حقوق الإنسان هي التي وجهت جيمـي كارتـر لكي يأسهم فـي شن غزو من أنغولا إلى ولايـة كاتنغا الزائيرية وذلك بنشـر قوات فرنسية. ولعله استخدم الخطة التي كان جيسكار ديستان قد اقترحها لي سنة 1975، بخصوص أنغولا، والتي جاءت تعديـلات طونـي وكلارك للقضاء عليها. ثـم، كما ذكرت سابقاً، كانت إدارة فـورد سنة 75 و76 تنظر إلى زائير باعتبارها شبكة أمان لزامبيا التي ـ بغير جارة زائيرية معتدلة ـ ستكون محاطة كلياً بدول متطرفة، إضافة إلى أن زائير هي جسر حيوي للبلدان الناطقة بالفرنسية في أفريقية الغربية.

جـرت محادثاتـي مع موبوتو قبـل الغداء وبعده في أثنـاء رحلة مدتها أربع ساعات فـي نهر الكونغو على متـن قاربـه النهري ذي الزخرفة المبالغ بهـا كل المبالغة، قاربه الكامل والمكمل مـن كل شيء حتى منصة لهبـوط الحوامات. وباعتباره مراقباً حاذقاً لزملائه الأفارقة، كرّس موبوتو بعضاً من وقته لشرح نظرته إلى سياساتهـم الداخليـة. زاعماً أن مختلـف الزعماء كانوا قبل زيارة كاوندا لواشنطـن، قد وافقوا على تقسيم العمـل وفق التالي: موبوتو يتسلم القيادة فـي أنغولا، وكاوندا في رودويسيا، ونيريري يجاريهم في ذلك، على مـا يبـدو لكن بشيء من التردد. بيد أنه مع انهيار الحكم البرتغالي في موزامبيق بسرعة أكبر بكثير مما كان متوقعـاً، ومـع استلام سامورا متشيل المتطرف السلطة، غدا نيريري ـ حسب ما قاله موبوتو ـ أكثر طموحاً، وبدأ يطلق العنان لأفضلياته الراديكالية، ويقدم الدعم لحركات التحرر في أنغولا وسواها، وكذلك للكوبيين. لكن مهما يكن القول الآن، فإن نيريري، كما حذر موبوتو، سيلتف ويقف إلى الجانب الراديكالي في رودويسيا، رغم أنه قد يكف عن ذلك عند نقطة ما من تدخل قوات أجنبية. إنه التحليل الذي كان يتناسب مع الحقائق طبقاً لما شهدته بنفسي، كما يبرهن على أنه كان ذا بصيرة بمستقبل الدبلوماسية المتعلقة برورديسيا.

وانطلاقاً من أن هناك ثلاث مئة دبابة وستين حوامة كانت في يد القوات المسلحة الأنغولية، فقد كان موبوتـو معنياً أساساً بأمن بـلاده. فقد شكا، ولديه بعض المبررات، من رفضـ البنتاغون السماح لزائير

بشـراء أسلحة متقدمـة. والحقيقة أن المساعـدات الأمريكية لزائير، وذلك إلى حـد كبير بسبب ضغوط الكونغرس، كانت ضئيلة مقارنـة بالمشكلات التي تواجهها البلاد، وقد أضاف موبوتو بأن الصين أرسلت له ثلاثين دبابة خفيفة وأربعاً وعشرين دبابة متوسطة، إذ «كان لديهم إحساس خاص بالخطر السوفيتي» ـــ وهي النتيجة التي كانـت محادثة فورد ـ ماو قد توصلت إليها من قبل. كما حث على برنامج مشترك مع بلـدان أوروبية حسنة ـ التوجه كفرنسا، بهدف تحويل زائيـر إلى مكان عرض اقتصادي يكشف عن فوائد التعاون مع الغرب.

لقـد كنـت متعاطفاً معـه، كما كان جيسكار حين أوجـزت له في باريس ما قاله موبوتـو وأنا في طريق عودتـي مـن أفريقيـة، لكن ما كان ينبغـي لذلك التعاطف أن يكـون. فموبوتو لم يكن مستعـداً للحكم وفق النظـام المطلـوب لتحويـل قبائل بلاده المختلفـة إلى الأمة العصريـة التي يمكن لثروتهـا أن تجعل ذلك ممكناً. كما كان يشعر بعدم الأمان داخلياً ـ ربما بسبب الكيفية التي جاء بها إلى الحكم ـ وعلى نحو دفعه لتكديـس ثروته الشخصية من أجل منفاه النهائـي، مفرغاً خزينة بلاده. أما الديموقراطيات، المحاصرة بالأزمات الاقتصادية والمطالبات الكثيرة بثرواتها، فقد سقطت بدورها، في وضعيتها المألوفة، وهي دفع مشكلاتهـا إلى الأمام. لقـد كان بإمكانها أن تحصل على مساعدة كافية لـدرء الكوارث المباشرة، لكنها لـم تكن الكفـوءة لإحداث تغير أساسي. وهكذا، بمرور العقود، حوَّل حكم موبوتو تدريجياً زائير إلى صورة كاريكاتوريـة تجسد علل أفريقية ـ إلـى أن سقط بفعل الثقل المشترك لسلوكه الخاص والمبالغ به وكذلك الخطط الإمبريالية لجارات بلاده.

ليبريا: تاريخ بلا هدف:

كانـت محطتنا التالية في ليبريا، وهي تجسيد آخر لمأساة أفريقية، لنا فيها، بوصفها أمة، يد طولى، كمـا نتحمـل مسؤولية مباشـرة أكثر. فقد تأسست ليبريـا سنة 1822، لتكون مـلاذاً للأمريكيين الأفارقة الساعيـن للعودة إلى وطنهم، وطن الأسلاف، فكانـت بذلك الدولة المستقلة الأقدم في أفريقية والمتلقية لخمـس مجمـوع الاستثمارات الأمريكيـة في القارة. كمـا كان عليها أن تكون مكان عرض للديموقراطية ولاقتصاد السوق. إلا أنها لم تكن أياً منهما، فعاصمتها، مونروفيا، هي مزيج من أكواخ الصفيح التي يخيم عليهـا الفقر، وبعض المباني الحكومية الضخمة، لقـد حكمت البلاد أقلية شبه دائمـة عملت بكل براعة لتحويل جملة الاستثمارات الأجنبية لمنفعتها الخاصة.

لقد استخدمت المحطة في ليبريا مناسبةً لخطاب هام آخر، يدور حول التنمية الاقتصادية الأفريقية ودور أمريـكا فيهـا. وكان ذلك قوساً يمتد إلى تركة تاريخية. لكن، كان ثمة شيء غير متجانس نوعاً ما في اختيـار هذا الموقع المخرَّب، الـذي قامت فيه أمريكا بمحاولتها الأولى للفـرار من بلوى العبودية، كموقع لخطاب يؤكد على أهمية الولايات المتحدة بالنسبة إلى نمو اقتصاديات أفريقية.

في ليبريا، عاد وانضم إليَّ السفير بيفرلي كارتر، وهو أحد الأمريكيين الأفارقة الأوائل الذين توصلوا إلى رتبة سفير. لقد كان، رجلاً، ضخم الحجم مهيب الشخصية، يتمتع بذكاء عالٍ وسلوك ساحر. لقد كان قبل سنة يخدم الشهور القليلة الأخيرة من خدمته سفيراً في تنزانيا، فيما كان القسم الشرقي من زائير الذي يجاور تنزانيا، قد وقع في أيدي جماعة منشقة راديكالية صغيرة معادية لموبوتو بزعامة كابيلا نفسه، ذاك الذي استولى لاحقاً على البلاد. كانت الجماعة تسيطر سيطرة تامة على منطقتها وتمول تمردها مما يأتيها من منجم ذهب صغير ومن عمليات خطف تقوم بها من حين إلى حين. في واحدة من تلك الحملات «لرفع ـ الرصيد»، دخلت عصابة جوّالة إلى تنزانيا، حيث خطفت خمسة طلاب جامعيين أمريكيين واحتجزتهم من أجل فدية. فجاء الآباء الثائرون، وهو أمر مفهوم، إلى سفارتنا في دار السلام طالبين المساعدة لتحرير أولادهم، مبدين استعدادهم لدفع الفدية وبالتالي منتهكين السياسة التي كنت أتمسك بها بشدة. فقد كنت متمسكاً كل التمسك بالنظرة القائلة: إن أفضل طريقة للقضاء على الإرهاب، هي عدم مهاجمة القواعد الإرهابية عسكرياً، ومنع أي تصرفات من شأنها أن تعود عليهم بأية فائدة، الأمر الذي يعني أنني كنت أمنع أي تفاوض على الإطلاق، وأنني كنت بشكل راسخ ضد أي نوع من أنواع دفع الفديات.

طبعاً، لم أكن الوحيد على خط النار مع أقرباء الرهائن اليائسين. فقد كان معي أيضاً السفير كارتر الذي كان يمضي الأشهر الأخيرة، كما قلت، من خدمته في السفارة. ذهب كارتر، مستسلماً لتوسلاتهم، إلى المقاطعة الزائيرية وفاوض الخاطفين. بعدئذ استغرقته عملية دفع الفدية. وقد كنت أعتقد أن سياستنا في عدم التفاوض تلزمني بأن أتخذ خطاً متشدداً بل حتى متصلباً وإلا سوف نقضم حتى الموت نتيجة وقوعنا في «حالة خاصة» بعد أخرى. ولكي أوضح أنني كنت أعني الأمر، فقد سحبت تصويتي إلى الرئيس بأن يكون تعيين كارتر التالي سفيراً في الدنمارك.

عند ذلك انفتحت عليّ فوهة الجحيم تماماً. إذ تحالف جماعة السود في الكونغرس مع شريحة من وسائل الإعلام للدفاع عن كارتر. فيما ثبُّت أنا على موقف. لكن بعد أشهر، وليلة عيد الميلاد 1975، اقتربت من كارتر في حفل الاستقبال، وكل اعتقادي أنني حققت غرضي، ثم عرضت عليه السفارة في ليبريان. فأقل ما يقال إن الفروق المرئية بين مونروفيا وكوبنهاغن صارخة، لكن، حسب معايير وزارة الخارجية، كنت أرقي كارتر. ذلك أنه حسب تلك المعايير، تصنف مونروفيا في المكانة رقم 2 بينما كوبنهاغن في المكانة رقم 4. تلك الفروق تتضمن اختلافاً في مستوى عناصر السفارة وعددهم، والموارد المخصصة، ووسائل الراحة.. إلخ والحقيقة كانت منروفيا حينذاك، ولأسباب غير قابلة للتفسير، موقعنا الأكبر في أفريقية.

أثبت كارتر أنه رجل كبير ليس فقط بحجمه، بل بأكثر من ذلك عندما قبل المنصب. ولكي أبين أنه ما من شيء شخصي كان ذا علاقة بالأمر، أشرفت بنفسي على أدائه القسم، قائلاً للحضور، إنني أقنعت

كارتـر بالذهاب إلـى أفريقية مرة أخرى بأن هددته بأن البديل هو تعيينه ضمن أركان وزارتي. لقد أعطى كارتـر بقدر ما نال. وبعد أن شكرني على تقليده المنصـب شخصياً أبدى الملاحظة التالية: «كما تعلمون ليس لدى السيد الوزير دائماً الوقت لكي يقلد السفراء المنصب. يعزلهم، نعم، لكن يقلدهم، لا» .

حين وصلنا إلى ليبريا كانت أعصابنا قد تلفت من الهجمات المتواصلة في الكونغرس ووسائل الإعلام، وقد كنا مستنزفين بعد أسبوع من مؤتمرات متواصلة. في هذا الجو، جاءت برقية من سكوكرفت تقول: بأن نقدم تقاريرنا اليومية إلى الرئيس على نحو عملي أكثر و «منمق» أقل، مما زاد في جنون العظمة المتصاعد، لاسيما لدى ونستون لورد، الكاتب الرئيسي لمسوّدات التقارير المسيئة. فرد لورد بإضافة ملخص مختصر لعرضه البليغ والكبير الحجم عادة. أرسلتهما كليهما إلى سكوكرفت مقترحاً أن يمررهما إلى الرئيس ليرى أيهمـا يشعـر أنه يلبي معاييره الأدبية. بهذه الجملة، كان الملخص يبدأ: «اليوم نحن في ليبيريا. الجو حار» . ثم يمضي التقرير لوصف الاجتماع مع الرئيس وليم تولبرت بالأسلوب الساخر التالي:

«لقـد قـال إن ليبريـا تريد مالاً أكثر. فقلت سنرى مـا يمكننا فعله، لكن كان عليـه أن يفهم أن لمكتب الإدارة والميزانية الكلمة الفاصلة وأنه كان في نيتنا أن نخسر العالم بطريقة كاملة التنسيق».

رداً على نقد سكوكرفت القاسي في أن علينا أن نوفر وصفنا للملابس المحلية الملونة، فقد كتب لورد على هذا النحو عن واقعة ثقافية أقيمت على شرفنا:

بعد ذلك، ذهبنا لرؤية أداء ثقافي كان مثيراً. ونظراً لأن هذه البلاد فقيرة، فإن بعض الفتيات لم يكن لديهـن سـوى نصف بذلة، لكنني لا أريد أن أزعجكم بشـأن الملابس المحلية أو أخبركم، أيُّ نصف كانت الفتيات يلبسن وأي نصف لا يلبسن، فهذا سيثيركم دون ضرورة».

لكن لحسن الحظ كان سكوكرفت، ولديه حق من حيث المبدأ، يتمتع بحس دعابة جيد فأوقف النسخة المختصرة.

ليوبولد سنغور: الملك ـ الفيلسوف

محطتنـا الأخيرة فـي أفريقية كانت دكار، عاصمة السنغال، وهي مدينـة جميلة عصرية ـ على الأقل الجـزء الـذي رأيته منهـا. وكان يحكم السنغال، منـذ استقلالها سنـة 1960، ليوبولد سنغـور، أحد أهم الشخصيـات فـي أفريقية. إذ كان، بوصفه شاعراً ورجل دولة، يمت لعـدة ثقافات في آن واحد. فرغم أنه كان يعتـرف بأنه مديـن فكرياً للثقافة الأوروبية، كان سنغور ينادي بفلسفـة «الزنوجة». هذا المفهوم غير الناضـج نوعاً ما كان يسعى لأن يدفـع بفكرة الثقافة السوداء بعيداً عـن الحصرية العرقية باتجاه علاقة تكامـل مع بلدان البحـر الأبيض المتوسط وأوروبا الجنوبية، التي، حسـب رأي سنغور، كانت وثيقة الصلة بأفريقيا بشكل من الأشكال.

علـى أن الزعيميـن الأشـد تأثيـراً في النفس واللذيـن واجهتهما في هـذه الرحلة، نيريـري وسنغور، كانـا على طرفي نقيض ضمن الطيف الأفريقي. إذ كانا بمعنى من المعانـي، يمثلان مجازين استعاريين لنهجيـن مختلفين من أجل التوصل إلى الهويـة الأفريقية. فنيريري مقاتل يستخدم الإيديولوجية كسلاح، وسنغـور مفكر يعلم نفسه قواعد السلطة. نيريـري يعتبر نفسه زعيم أفريقية التي ستتطور بأسلوب فريد، مستقل عن الأساليب الراهنة في بقية العالم الذي يمكن لأفريقيا أن تستفيد منه دون أن تسمح له بتلويث جوهرهـا. أما سنغور فكان يرى نفسه مشاركاً في نظـام دولي ستلعب فيه أفريقية و«الزنوجة» دوراً مهماً، لكن منفصلاً. كان نيريري، بعد الانتهاء من قول وفعل كل شيء، يكافح من أجل انتصار أفريقية السوداء، في حين كان سنغور يكافح من أجل تصالح الثقافات ضمن سياق تقرير ـ المصير.

كذلك كان الفرق بين الزعيمين يبين التناقض بين ردود الأفعال تجاه الاستعمار البريطاني والفرنسي. فبريطانيـا كانـت ترهـب رعاياهـا، فيما كانـت فرنسا تغريهـم. رعايا بريطانيـا كانوا ينسخـون صفتها الدستوريـة وإجراءاتهـا القانونيـة، لكنهم في صميم قلوبهـم كانوا يعرفون أنهم لـم يصبحوا بريطانيين قط. وكانوا يتبنون المؤسسات البريطانية وسيلةً لتحرير أنفسهم من هيمنة بريطانيا وصنع هوية سياسية يتميزون بها عن الحكام الاستعماريين ما أمكن.

من جهة أخرى، كانت فرنسا تبهر رعاياها الاستعماريين بثقافتها، وحتى بلغتها، أكثر من مؤسساتها. لهذا فإن معظم المستعمرات الفرنسية أبقت بعد أن استقلت سياسياً، روابط فكرية وثيقة مع فرنسا وظلت تتطلع إليها من أجل أمنها الداخلي والخارجي.

فرئيس ساحل العاج، فليكس بوينـي، كان عضواً في مجلس الشيوخ الفرنسي، وليوبولد سنغور خدم في وزارة رئيـس الوزراء الفرنسي إدغارفور. ورغم أنهما كانـا أفريقيين منبتاً وقناعة، إلا أنهما ظلا ينظران إلى نفسيهما باعتبارهما يمتّان أيضاً إلى الحياة الفكرية والسياسية للسلطة الاستعمارية.

تنظـر البلدان الرئيسيـة الناطقة بالفرنسية، كالسنغـال وساحل العاج، إلـى الصراعات في أفريقية الجنوبيـة من منظـور مماثل لمنظورنا تمامـاً. إذ كانت تؤيـد السعي لحكم الأغلبيـة وتوافق على خطابي فـي لوساكا. في الوقت نفسه، كانت تضع الارتقـاء بأفريقيا الجنوبية في سياقه الجيوسياسي، وما لم يتم كسب المعركة ضد النزعة التطرفية الأفريقية ـ ولا سيما إن أتيحت للاتحاد السوفيتي وكوبا الفرصة لأن يصبحـا لاعبيـن أساسيين ـ فإن عالم التعاون والتنسيق الذي يتصورونه لن يتحقق أبداً. على هذا النحو، فسر سنغور ما كان قد حدث في أنغولا على أنه هزيمة لأفريقيا المعتدلة كلها:

لـم تول الولايـات المتحـدة أفريقية اهتماماً كافيـاً، فكانت أنغـولا كارثة للغرب كلـه، وليس للولايات المتحدة فحسب. بل لقد قلت إنها كارثة ليس فقط للغرب الرأسمالي بل للديموقراطية الاجتماعية..

هذا يرهب الأفارقة، ولقد قال لي الوزير الفرنسي: «الأفارقة كلهم يريدون السلاح الآن». هذا لا يعني أنهم يريدون حشوداً من الجند، بل يريدون التسليح ـ دبابات، صواريخ، طائرات، فهل تستطيع مالي، أو غينيا ـ أن تمتلك أسلحة لمقاومة السوفييت والكوبيين؟ هي ليست مسألة تدخل بل مسألة مساعدة غربية.

لقد قلت: «أنت الشيء الجوهري، أي أنه لن تكون هناك أنغولا ثانية». كذلك، كان سنغور يحمل الكثير من الازدراء للأنظمة العسكرية في أفريقية الغربية، ولا سيما في المستعمرات البريطانية السابقة:

تعكس نجيريا الآن مرض الغرب. فالنظام العسكري هو نظام اللااستقراء. ولكي يمسك النظام بالسلطة يتخذ مواقع يسارية.. نيجيريا والجزائر تحاولان إدخال العرب إلى أفريقية لتدمير «الزنوجة»، ولفرض الإمبريالية العربية، غير أن السنغال ستقاوم. إن الجواب الواضح، لدى هذا التلميذ للمدرسة الفرنسية في إدارة الدولة، على اضطراب ميزان القوى هو إقامة كتلة مؤيدة ـ للغرب في أفريقية. مع ذلك كان وضعنا الداخلي يحرمه، والحكمة التقليدية الأمريكية فيما يخص المواقف الأفريقية تحذر منه. فمثل هذه السياسة، ما عدا في البلدان الناطقة بالفرنسية، لن تكون مفهومة وسيعارضها بشدة الكثيرون، ولا سيما في المستعمرات البريطانية السابقة. لذا، كانت استراتيجيتنا الأفضل تثبيت وحدة أفريقية وعدم انحيازها، وإن حاول السوفييت إقامة كتلة خاصة بهم أو استمروا في صب الأسلحة على القارة، حينذاك سنقاوم باسم تلك المبادئ.

وأياً كانت الاستراتيجية الخاصة بمقاومة الانتشار الأوسع للنفوذ الشيوعي بالوسائل العسكرية، كان أحد الأهداف الرئيسية لرحلتي يتعلق بمسألة ستغدو قضية أساسية في الولايات المتحدة، وهي المسألة التي أطرحها الآن على سنغور:

كيسنجر: إذا نحن قاومنا الكوبيين في مكان ما، هل يمكننا الحصول على دعم أفريقي كاف بحيث لا ينظر إليها كحركة إمبريالية؟.

سنغور: أعتقد أنكم إن قاومتم، فستحظون بتأييد المعتدلين. فنحن لن نختبئ. في أنغولا، قلنا إننا نعارض التدخل السوفيتي ونعتقد أن أغلبية الدول الأفريقية ستعارض.. لأن القوة يحسب حسابها. فإذا ماظهرتم أقوياء، فإن غالبية الأفارقة ستؤيدكم.

«القوة يحسب حسابها». كل من رأى الزعماء الأفارقة قيد العمل سيؤكد تماماً هذا القول. مع ذلك، فإن كثيراً من مناصري أفريقية في الولايات المتحدة كانوا يزعمون أن أفريقية محصنة بشكل من الأشكال ضد عِبَر التاريخ وأن لديها وضعيتها الخاصة للبقاء بعيدة عنها. بيد أن سنغور لم يكن قد استسلم لهذا التفكير المليء بالحنين إلى الوطن. بل كان يفضل أن يناقش معي بشكل مطول كيف ينطبق قوله على الموقف الدولي، مغطياً التوجهات السوفيتية، والسياسات الصينية، والشرق الأوسط، والشيوعية الأوروبية، وقضايا إقليمية مثل مستقبل المغرب. فقلت لسنغور وقد تأثرت أشد التأثر:

إن كنـت تحمـل مشاعر شديدة تجاه شيء ما – إن كنت تشعـر أننا على خطأ، أو تشعر أنه بإمكاننا أن نفعل شيئاً أفضل – اتصل بي أو اتصل مباشرة بالرئيس فورد. وسأرى الأمر، وأوصله إلى جماعتنا بطريقة يمكننا التأكيد أنه لن يتسرب.

فـي دكار أيضـاً، ألقيت خطاباً تعهدت فيه، باستعدادنا للإسهـام في أي جهد دولي لمكافحة الجفاف الـذي ضرب منطقة الساحل التي هي جزء أساسي من السنغال. وكان جزء من قرارنا أن نبين أن سياسة أمريـكا في أفريقية لها أهدافها الإيجابيـة التي لم تكن فقط بدافع الخوف من كوبا أو الاتحاد السوفيتي. لكن في الجو المشحون للغاية الذي كان، واشنطن سنة ـ الانتخابات، تم التخلي عن ذلك البرنامج الرمزي بجوهره، بوصفه مثالاً آخر عن التطبيق اليائس لموقف «افعل الخير» تجاه أفريقية.

قبـل رحيلي مباشـرة، زرت جزيرة غوري، حيـث كان العبيد المأسورون حديثـاً يجمعون قبل شحنهم بالسفـن إلـى أمريكا الشمالية، مقيدين أحياناً بالسلاسل في زنزانات قذرة طوال أشهر. لقد أثّرت بي كل التأثيـر هذه الذكرى للعذاب العاطفي الذي أصـاب أولئك الذين اقتلعوا من تراب وطنهم ـ مصحوباً، في الحالة الأفريقية بمعاناة جسدية لا يمكن وصفها. ولقد أشرت إلى ذلك في تقرير مغادرتي في 2 أيار:

هـذا الصبـاح، أتيحت لنا الفرصـة لزيارة جزيرة غوري، التـي هي رمز لعدم الإنسانيـة التي أوقعها الإنسـان تاريخيـاً بأخيـه الإنساني، والتي تدعونا كلنـا إلى أداء واجبنا في أن نبدأ فـي هذه القارة مرحلة جديدة، يكون فيها الناس كلهم ـ سوداً أم بيضاً ـ قادرين على العمل معاً، ويكون باستطاعة الأفارقة كلهم أن يصونوا كرامتهم وتقدمهم الإنساني، مرحلة، على التدخل الأجنبي الذي كان مأساة أفريقية على مدى قرون، أن ينتهي فيها من هذه القارة إلى الأبد.

نيروبي: الاجتماع مع وزراء دولة المواجهة:

فـي وقت متأخر من مساء 2 أيار، عدت إلـى نيروبي بعد أن طرت عبر القارة طىلة ثماني ساعات كي أقـدم الموقـف الأمريكي في مؤتمـر الأمم المتحدة للتجـارة والتنمية، وهو اجتماع يعقـد كل أربع سنوات لـوزراء الاقتصـاد والتنمية من أجـل مناقشة البرامج الخاصـة بالعالم الثالث. في الماضـي، كان يمثلنا فـي اجتماعات التجـارة والتنمية هذه، عضـو الوزارة الذي يتعامل مـع التنمية الاقتصاديـة، أما البلدان الصناعيـة المتقدمة التي لم تكن ترسل وزراء على الإطلاق، فقد كان يمثلها مندوبون من ذلك المستوى. في نهاية رحلتي عبر أفريقية، وهي الرحلة التي تركزت على موضوعات استراتيجية وسياسية، اخترت أن أتكلـم باسم الولايات المتحدة كي أجسد الأهمية السياسيـة التي نعلقها على الحاجة لترتيبات اقتصادية دولية تعاونية جديدة (وقد عالجت موضوع الخطاب في الفصل 22).

ثمانية أيام كانت قد مرت على إقامتي السابقة في نيروبي. وكنت قد زرت خمس بلدان أفريقية، قدمت برنامجـاً لحكم الأغلبية في أفريقية الجنوبية، وبينت الاهتمام الأمريكـي بالتنمية الاقتصادية للقارة في

كلمـات احتفالية طويلة فـي مونروفيا، ووضعت أفكاراً أولية للتعامل مع مشـكلات الساحل في دكار، لأُتوّج السلسلـة فـي المؤتمر الدولي للتنمية والتجـارة باقتراح يقضي بتخفيف أثر تقلبـات السوق الشديدة على البلدان النامية ذات الاقتصاد الذي يعتمد على سلعة بعينها.

كان نيريـري قـد وعـد بأنـه سيشجـع وزراء دول المواجهة الرئيسيـة لمراجعة الموقف معـي قبل أن أعـود إلـى الوطن، ولقد وفّى بوعده. إذ حضر وزير الخارجيـة زامبيا وموازمبيق، كما حضر وزير التجارة والصناعـة من بوتسوانا (فوزيـر الخارجية كان في رحلة إلى الولايات المتحدة مع رئيس جمهوريته). أما نيريري فقد أرسل وزير دولة من مكتب الرئاسة كان قد عيّنه رئيس تشريفات لنا. ذلك هو الاجتماع الأول الـذي عقـد بين مسؤول كبير في الإدارة الأمريكيـة ومسؤول رفيع المستوى من موازمبيـق ـ الدولة الأشد تطرفـاً وماركسية من دول المواجهة كلها، والدولة الأكثر قابليـة وسهولة للاختراق السوفيتي، والتي تمثل الاحتمال الأكبر في أن تتعاون مع القوات المساعدة الكوبية.

كان وزير خارجية موزامبيق، جواكيم تشيسانو (وهو، أثناء كتابتي هذه، رئيس للجمهورية) في أفضل حالاته وتصرفاته. وعندما تيسر لي أن أعرفه فميا بعد، علمت أنه كان شديد الاستقلالية والمعقولية على حد سواء. لقد حثني تشيسانو على مقابلة الرئيس سامورا متشيل في رحلتي التالية إلى أفريقية، كما وافق علـى أن تعمل دول المواجهة كوحـدة واحدة، مضيفاً شيئاً من القيمة على وعـد نيريري بتسريب الأسلحة من الخارج إلى قوات التحرر عبر وكالة مركزية لا إلى كل جماعة من جماعات حرب العصابات بمفردها، وبذلك يتم تقليل الفرص للتورط الكوبي.

لقـد انتهزت فرصة الاجتماع مع الوزراء الأفريقييـن الجنوبيين كي أحذرهم مرة ثانية من أن تعاوننا سيتوقف، إذا شاركت القوات الكوبية أو السوفيتية في الصراع المسلح، كذلك، ورداً على تعليق من ممثلي نيريري، وبيتر سيوفيلوا، أجملت أيضاً حدود مساعدتنا:

لا أريـد أن أضللكم، فنحـن لا نستطيع أن نلزم أنفسنا بصراع مسلح. إن كان بإمكاننا أن نلزم أنفسنا بخطـوات دبلوماسيـة واقتصاديـة، لقد قال رئيـس جمهوريتك (نيريـري) لصحافتنا: إنـه ليس بحاجة لمساعدة تتعلق بصراع مسلح، بل هو بحاجة لتفهم..

ورغم أنني لا أطلب مساعدتكم، إلا أنه سيكون من المفيد أن لا تعزو الأمر للدوافع الأسوأ، على الأقل، وأن لا يرى الشعب الأمريكي أن الأفارقة يمنحوننا فائدة الشك. بذلك يكون على كل منا أن يتفهم حاجات الآخر الضرورية.

ونظراً لأن استراتيجيتنا كانت تقوم على كسب دعم جنوب أفريقية، فقد كشفت عن نيتي في أن أجري محادثـات عالية المستوى مع زعماء جنوب أفريقية. وعلى نحو أكثر دقة، سألت وزراء دول المواجهة كيف سيكون رد فعلهم على محاولة كهذه، فأجاب سيوفيلوا:

نعتقـد أنـه من المستحيل العمل مع جنوب أفريقية. لكن إن كانـت هناك أية جهة، كالولايات المتحدة مثلاً، يمكنها أن تضغط عليها بصورة كافية، وأن تفرض فعلاً حظراً (على روديسيا).. بعدئذ اتفقنا على أن نلتقي ثانية خلال دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة في أيلول لمراجعة ما حل بتلك القضايا.

العودة إلى واشنطن:

كانـت رحلتـي إلى أفريقية قد بدأت بمشاورات في بريطانيا، إحـدى بلدان الناتو ذات الدور التاريخي الرئيسـي فـي أفريقية، وكانـت ستنتهي في فرنسا، والبـلاد الأوروبية ذات العلاقـات المستمرة والأقوى، ربما، بأفريقيا. لقد كان ذلك تعبيراً عن التعاون الوثيق الذي نما وتطور بين جيرار وإدارة فورد. فالرئيس الفرنسـي كان يدعـم كل الدعـم سياستنا ــ وليس ذلك ما كان يحـدث غالباً في تعاملاتنـا الماضية مع فرنسا الديغولية. حجة جيسكار هي أن مهمة ربط أفريقية بالغرب أكبر من أن تقوم بها الولايات المتحدة بمفردها، لهذا يجب أن يكون هناك تقسيم عمل، بحيث تتناول الولايات المتحدة مسألة الدبلوماسية التي تفضي إلى حكم الأغلبية في جنوب أفريقية، وبريطانيا تتحمل مسؤولية المفاوضات الفعلية، وهو، جيرار، مستعـد لتقديم برنامـج غربي مشترك للتنمية الاقتصادية مصمم، بحيـث يشمل الدول المعتدلة، وتكون المستفيدة الرئيسية.

لكن واشنطن لم تكن في مزاج مناسب لاستراتيجيات عالمية. لقد كانت سنة انتخابات، والسياسة هي الملـك، فتوقع إزاحـة الرئيس من موقعه من قبل متحدٍ له من داخل حزبه، كان يجعل الدم يفور في عروق قاطنـي «البيلتوي»، الأمر الذي حوّل حملة فورد ـ ريغان الانتخابية الأولى إلى هاجس قومي. فالمحافظون الذيـن ربما كانوا متعاطفين مـع محاولة عكس المد الكوبي في أفريقيـة، أداروا الأذن الطرشاء للسياسة التـي كان بإمكانهـا أن تخفض مـن الفوائد التي كان ظاهريـاً يتمتع بها بطلهم، رونالـد ريغان، في حملة ضـد الليونة المزعومة لفورد وإدارته. كذلك كان هناك جانب أقـل جاذبية لانتقاداتهم. موجة النفور من أن تقـف الولايـات المتحدة ضد الأقليـة البيضاء إنما كانـت نوعاً من التعصب الانعكاسـي، فقد أظهرت العجز عن إدراك أنها، في مواجهة التطرف المتصاعد في أفريقية الجنوبية، كانت تلك هي الاستراتيجية الوحيدة للاحتفاظ بأي أمل لتحقيق درجة ما من التعايش بالنسبة إلى الأقليات البيضاء.

شـرع نقادنا فـي تطبيق مناهج علـى أفريقية تضعف سياسـة الانفراج مع الاتحـاد السوفيتي، وذلك بتصعيدهم هجوماً حول قضية راحوا ينظرون إليها كرمز لنهجنا ذي الركب ـ الواهنة كما زعموا. بالنسبة إلـى الانفـراج، كانت هناك قضية السالـت وهجرة اليهود من الاتحـاد السوفيتي. بالنسبـة إلى السياسة الأفريقية، كانت هناك قضية المساعدات إلى موزامبيق، ونظراً لأن المبلغ المطلوب كان 125 مليون دولار فقط، فإن المسألة لم تكن مسألة المبلغ الذي نحتاجه بشكل أساسي لإقامة علاقة ما مع متشيل، القائد ـ الـذي هـو حسب تقويم كل الناس ـ الأكثر استعداداً لدعوة القوات الكوبية. بل إن غرض الهجوم هو الحت

التدريجـي لسياسات الإدارة، وتبيان عجزنا عن إنجاز حتى أشـد الأهداف محدودية. لقد تم التعبير عن الحالـة المزاجيـة السائدة بين الكثير مـن الجمهوريين من قبـل جيمس بيكر، المسـؤول عن حملة فورد الانتخابية، ثم وزير خارجية جورج بوش فيما بعد، وذلك حين حثّني علناً على الاستقالة لصالح الرئيس.

لكـن هذه المـرة، لم يفلح الهجوم فـي إضعـاف الإدارة. إذ تقدم السناتور هيوبـرت همفري وثمانية جمهورييـن معتدلين بمشروع قرار يمتدح «سياستنا الخارجية الأكثـر أخلاقية»، التي تعد بواقعية جديدة في سياسة الولايات المتحدة تجاه أفريقية. لكن قبل كل شيء، كان الرئيس قد قرر أن يكافح.

إنهـا واحـدة من لحظات فـورد النبيلة. فعندما يتعرض عضو من أعضاء مجلس الـوزراء إلى هجوم عنيـف، كان الإجراء الـذي يتخذه البيت الأبيض في الغالـب الأعم هو إصداره بيانـاً نموذجياً داعماً، ثم ينسحب من ميدان المعركة إلى أن ينقشع الدخان وحينذاك تحدد الأضرار التي لحقت بالرئيس.

بيـد أن فـورد لم يفعل شيئاً من هذا. بل أمـر رودنيسين، وأنا ما أزال في أفريقيـة، بإصدار بيان قال فيـه: «إن الرئيس هو الذي يضع السياسـة الخارجية والدكتور كيسنجر هو الذي ينفذ ويعلن تلك السياسة الخارجيـة، وذلك هو ما فعله في الرحلة الأفريقية» [6]. لقد وقف فورد، منذ اللحظة التي عدت فيها، وقفة واضحـة تمامـاً وراء سياستنا الأفريقية. إذ عقد اجتماعين علنيين معـي (أحدهما يوم الأحد) للاستماع إلـى تقريري، وفـي 11 أيار، عقد اجتماعاً لمجلس الأمن القومي (أعلن أيضـاً للصحافة) يتيح لي فيه أن أقـدم تقريراً إلى المجموعة الأساسية صانعة - السياسـة في الإدارة، وقد أجمل نظرته إلى نتائج الرحلة بقوله:

أعتقـد، ممـا أبلغنـي إياه هنري سابقاً ومـا سيتوسع به هنا، أننـا أوقفنا إضفاء صبغـة التطرف على أفريقية وفتحنا الباب للتحرك في اتجاه إيجابي.

وفـي صبـاح اليوم التالي، دعا فورد قيادة كلا الحزبين لاجتماع فـي البيت الأبيض ثم افتتح الاجتماع بهذه الكلمات:

إثـر المأسـاة الأنغوليـة، بدأ الوضع فـي أفريقيـة الجنوبية يتسارع باتجـاه كارثة محتملـة بالنسبة إلى الـدول الأفريقيـة المعتدلة. إذ بدأت تقلق وتخاف كثيراً، بينما أصبحت الدول المتطرفة، وعلى نحو متزايد، ناشطة في إثارة العنف في تلك المنطقة. ولقد فكرت أنه لا بد من عمل شيء ما، وأن علينا أن نتقدم ببعض الاقتراحـات فـي محاولة منا لتهدئة الوضـع واستقراره. وقد ركزنـا جهودنا الأولى على إحبـاط السوفييت والكوبيين، لاعتقادنا أننا إن لم نفعل شيئاً، سرعان ما ستكون المنطقة كلها ثمرة يانعة يقطفها السوفييت.

إننـي أعلـم أن هناك بعض الانتقادات لتوقيت رحلة الوزير، لكن تقديـري هو أنه ليس باستطاعتنا أن نبقي سياستنا الخارجية رهن الجمود كل أربع سنوات. وليس باستطاعة الولايات المتحدة أن تقول للعالم

إنهـا ستتـرك الأمور على عواهنها خلال أشهر الانتخابات الستة، كما أننـي أرغب في أن أمضي قدماً بما يتعين علينا أن نفعله وأن نتحمل المسؤولية إذا لزم الأمر.

كذلـك اتصل أحد مساعدي الرئيس لدى سماعـه أن جون أوزبورن من «النيوريبليك» يكتب مقالة عن رحلتي إلى أفريقية، فوصف أوزبورن الاتصال كما يلي: «إحدى السمات القليلة التي تقوي القلب هي التأكيد الذي نقل إلي بأن الرئيس مصمم على التمسك بكيسنجر» . وفي كتابة لاحقة، أضاف أوزبورن: «إن التأكيد المذكور في نهاية هذا التقرير نقل إلي من قبل أحد مساعدي البيت الأبيض وتوجيه من السيد فورد» [7].

لقد جعلني دعم فورد ملزماً بالاستمرار كما ألهمني الاستمرار. بيد أن اللجب الشديد حجب الحقيقة الفعليـة ذاتها وهي: أننا كنا قد قمنا بالخطوة الأولى فقط. لقد نظمنا أولئك الذين كانوا سيستفيدون من سياستنا الجديدة .

وحثيناهـم علـى أن يقوموا بالمغامرة السياسية، مغامرة التفاوض. أمـا أولئك الذين كانوا سيقدمون التضحيات ـ السكان الأوروبيون في أفريقية الجنوبية، وبالطبع، جنوب أفريقية ذاتها ـ فقد كان ينبغي أن نسمع منهم بعدئذ.

obeikandl.com